الفصل الرابع

دلالات النوادر المذكور فيها المرأة

نرى فى النوادر المذكور فيها المرأة دلالات عديدة؛ منها دلالات سياسية ودلالات دينية ودلالات اجتماعية، وسوف نوضح هذه الدلالات المتعددة الآن.

الدلالات السياسية

لم تكن للمرأة فى العصور القديمة – خاصة العصرين الأموى والعباسى – مشاركة سياسية كبيرة، وهناك نساء قليلات شاركن فى قرارات الدولة كالخيزران زوجة المهدى التى كان يحيى بن خالد البرمكى وزير هارون الرشيد يصدر عن رأيها فى السنوات الأولى من خلافة ابنها هاورن الرشيد، وكذلك كان لزبيدة زوجة الرشيد مشاركة محدودة فى بعض أمور الحكم فى خلافة الرشيد، ويكفى أنها كانت الداعية لجعل ابنها الأمين وليًّا للعهد قبل أخيه الأكبر منه المأمون لكون المأمون أمه فارسية فى حين الأمين أمه عربية وهى زوج الرشيد[1].

(1) وقد حدثنا الجاحظ فى كتاب القيان عن بعض الجوارى اللائى قمن ببعض الأعمال المتعلقة بإدارة الدولة العباسية مما يدخل فى إطار السياسة، يقول الجاحظ:

"ثم لم يزل للملوك والأشراف إماء يختلفن فى الحوائج، ويدخلن فى الدواوين، ونساء يجلسن للناس، مثل خالصة جارية الخيزران، وعُتْبة جارية ريطة ابنة أبى العباس، وسُكَّر وتركية جاريتى أم جعفر، ودُقاق جارية العبَّاسة، وظلوم وقسطنطينة جاريتى أم حبيب، وامرأة هارون ابن جعبويه، وحَمْدونة أمة نصر بن السندىِّ بن شاهك.

ثم كن يبرزن للناس أحسن ما كنَّ وأشبه ما يتزيَّنَّ به، فما أنكر ذلك منكر ولا عابه عائب".

انظر: الجاحظ: رسائل الجاحظ. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجى بالقاهرة، د.ت، 2/156- 157.

وبعض النوادر أشارت لنساء فى البلاط العباسى، بشىء من النقد كهذه النادرة التى تصف فيها أعرابية حمدونة بنت الرشيد – بعد أن دخلت عليها ورأتها ثم خرجت من عندها – بصفات فيها تجريح وذم شديد، ولا تستحى هذه الأعرابية من أن تتناول فى وصفها وذمها بعض العورات فى جرأة واضحة[1].

ومن الجوانب السياسية التى صورتها النادرة موقف بعض النساء من بعض الأحداث السياسية الكبرى، كموقف السيدة سُكَيْنة بنت الحسين من أهل الكوفة حين تخاذلهم عن نصرة أبيها الحسين بن علىّ وزوجها مصعب بن الزبير، كما نرى فى هذه النادرة.

"دخل نساء من أهل الكوفة إلى سكينة بنت الحسين بن على بن أبى طالب عليهم السلام يعزينها فى زوجها مصعب. فقالت: لا جزاكم الله خيرًا يا أهل الكوفة: أيتمتمونى صغيرة وأرملتمونى كبيرة"[2].

وكذلك من الجوانب السياسية التى أشارت إليها النادرة، انتقاص الأعراب، وتصويرهم على أنهم حمقى لا يدركون شيئًا من أمر هذا العالم باستثناء ما يتعلق بأمور باديتهم فى حياتهم البسيطة بها.

ولا ننكر أن يكون للأعراب – أو لبعضهم – تصرفات غريبة، خاصة حين وفودهم على الحضر، وكذلك لا نستغرب جهل بعضهم

---

(1) ابن قتيبة: عيون الأخبار. شرحه وضبطه وعلّق عليه وقدم له ورتب فهارسه: د. يوسف على طويل. بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت، 40/4، وانظر أيضًا: د. على محمد السيد خليفة: بنية السرد فى النادرة نوادر الأعراب فى كتاب عيون الأخبار نموذجًا. الإسكندرية،دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط1، 2010م،ص100.

(2) البصائر والذخائر، 226/2.

بأمور العبادة[1]، ولكن أن نجد عددًا هائلاً من النوادر يصف سذاجتهم وجهلهم الشديد بأمور الدين، ثم جرأتهم الشديدة عليه، فهذا فى رأيى يدل على يد الشعوبية التى أراد المنتمون لها من المتعصبين على العرب – من الفرس خاصة – أن يسخروا من الأعراب لأنهم أصل العرب ومعدنهم؛ ولذا نظن أن بعض النوادر التى تصف المرأة الأعرابية بالسذاجة أو بسوء التصرف، أو بالجهل بشعائر الدين الإسلامى – أنها من صناعة الشعوبيين للنيل من العرب.

وها هى ذى نادرة نرى بها أعرابيًّا يتعصّب لأمه على أبيه – ولا ندرى لماذا؟! – ويدعو لها عند الكعبة ولا يدعو لأبيه.

"ودعا أعرابى بمكة لأمه فقيل له: ما بال أبيك؟ قال: ذلك رجل يحتال لنفسه"[2].

وحتى النوادر التى تصف الأعرابية بفهم الإسلام والحرص على أداء شعائره – كشعيرة الصوم – نرى بها زوجها شخصًا متمردًا على هذه الشعائر، كما نرى فى هذه النادرة.

"وأدرك أعرابيًّا شهر رمضان فلم يصم؛ فعذلته امرأته فى الصوم، فزجرها وأنشأ يقول:

---

(1) يقول الله تعالى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾. سورة التوبة، الآية 97.

ويقول تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ سورة الحجرات، الآية 14.

(2) أخبار الحمقى والمغفلين، ص104، وانظر أيضًا: والبيان والتبيين، 282/3.

أتــأمرنى بالصــوم لا دَرَّ دَرُّهــا وفى القبر صوم يا أُمَيْمُ طويلُ"[1].

وهناك نوادر تصوِّر حال الناس حين ساد الرفض – أى التشيع الشديد كالإسماعيلية والإمامية – فى أماكن معينة، وأثر شيوعه على أحوال الناس الذين يرفضونه، ويخشون سطوة السلطان وقتذاك المؤيد للرافضة والمعادى لأهل السنة، كما نرى فى هذه النادرة.

"جاز أبو بكر بن قانع بالكَرْخ فى أيام الدَّيْلَم وقوة الرفض، فقالت له امرأة: سيدى أبو بكر! فقال لها: لبيك يا عائشة! فقالت: كأن اسمى عائشة! قال: فيقتلونى وحدى!؟"[2].

الدلالات الدينية

نجد بعض النوادر المذكور فيها المرأة، تعرضت لبعض الأمور الفقهية، وبخاصة الغريب منها، كما نرى فى هذه النادرة.

"كان الطالقانى من أصحاب أبى حنيفة[3]، وكان شديد الغفلة، فقال يومًا لابن عقيل: كيف مذهبكم فى المرأة، هل يجوز أن يزوجها ابنها؟

قال له ابن عقيل: فى ذلك تفصيل، إن كانت بكرًا جاز، وإن كانت ثيبًا لا يجوز، فقال: ما سمعت هذا التفصيل قط"[4].

---

(1) عيون الأخبار، 247/3.

(2) أخبار الظراف والمتماجنين، ص107.

(3) هو أبو حنيفة النعمان أحد أئمة الفقه الأربعة.

(4) أخبار الحمقى والمغفلين، ص148.

وبسبب الخلافات التى كانت بين الفرق الإسلامية كأهل السنة والشيعة، فقد ولَّد الشيعة نوادر فيها انتقاص بصحابة أجلاء، وبالسيدة عائشة – رضى الله عنها – لخروجها على علىّ ﷺ فى معركة الجمل، كما نرى فى هاتين النادرتين.

"دخلت أم أفعى العبدية[1] على عائشة فقالت: يا أم المؤمنين ما تقولين فى امرأة قتلت ابنًا لها صغيرًا؟ قالت: وجبت لها النار؟ قالت: فما تقولين فى امرأة قتلت من أولادها الكبار عشرين ألفًا؟ قالت: خذوا بيد عدوة الله"[2].

* * *

"وقالوا: وقع بين حيين من قريش منازعة، فخرجت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها على بغلة، فلقيها ابن أبى عتيق، فقال" "إلى أين – جعلت فداك"؟ قالت: "أصلح بين هذين الحيين". قال: "والله ما غسلنا رؤوسنا من يوم الجمل؟ فكيف إن قيل: يوم البغل"! فضحكت وانصرفت"[3].

ولم يعلق الزمخشرى ولا أبو حيان على النادرة التى ذكراها عن السيدة عائشة – رضى الله عنها – وفيها نيل منها، وكان أولى بهما أن يعلقا ذاكرين ما فيها من وضع وتوليد من الشيعة بغرض الإساءة لأم المؤمنين.

---

(1) أم أفعى العبدية: لم نقف لها على ترجمة.

(2) ربيع الأبرار، 60/2، وانظر أيضًا: البصائر والذخائر، 193/5.

(3) الجاحظ: القول فى البغال. حقق الكتاب وعلَّق عليه ووضع الفهارس: شارل بلاَّ. بيروت، دار الجيل، ط1، 1416هـ/ 1995م، ص18.

أما النادرة الثانية، فقد ذكرها الجاحظ، وعلق عليها موضحًا أنها موضوعة من قبل الشيعة، بغرض الإساءة للسيدة عائشة رضى الله عنها.

يقول الجاحظ معلقًا على هذه النادرة:

"هذا – حفظك الله – حديث مصنوع، ومن توليد الروافض، فظن الذى وَلَّدَ هذا الحديث، أنه إذا أضافه إلى ابن أبى عتيق، وجعله نادرةً وملحة، أنه سيشيع، ويجرى عند الناس مجرى الخبر عن أم حبيبة وصفية. ولو عرف الذى اخترع هذا الحديث طاعة الناس لعائشة – رضى الله عنها – لما طمع فى جواز هذا عنه: وقال علىّ بن أبى طالب – كرم الله وجهه –: "منيت بأربعة: منيت بأشجع الناس، يعنى الزبير؛ وأجود الناس، يعنى طلحة؛ وأنضّ الناس، يعنى يَعْلَى بن مُنَبِّه؛ وأطوع الناس فى الناس، يعنى عائشة"؛ ومن بعد هذا، فأى رئيس قبيل من قبائل قريش كانت تبعث إليه عائشة – رضى الله عنها – رسولاً، فلا يسارع، أو تأمره فلا يطيع، حتى احتاجت أن تركب بنفسها؟ وأى شىء كان قبل الركوب من المراسلة والمراوضة والمدافعة والتقديم والتأخير، حتى اضطرها الأمر إلى الركوب بنفسها؟ وإن شرًّا يكون بين حيين من أحياء قريش، تفاقم فيه الأمر، حتى احتاجت عائشة – رضى الله عنها– إلى الركوب فيه، لعظيم الخطر، مستفيض الذكر؛ فمن هذان القبيلان؟ ومن أى ضرب كان هذا الشر؟ وفى أى شىء كان؟ وما سببه؟ ومن نطق من جميع رجالات قريش فعصوه وردوا قوله، حتى احتاجت عائشة فيه إلى الركوب؟ ولقد ضربوا قواديم الجمل، فلما برك ومال الهودج صاح الفريقان: "أمكم! أمكم!" فأمر عائشة أعظم، وشأنها أجل، عند من يعرف أقدار الرجال والنساء، من أن يجوز مثل

هـذا الحـديث المولـد ، والشـر المجهـول، والقبيلـتين اللـتين لا تعرفـان، والحديث ليس له إسناد؛ وكيف وابن أبى عتيق شاهد بالمدينة، ولم يعلم بركوبها ، ولا بهذا الشر المتفاقم بين هذين القبيلين؟ ثم ركبت وحدها ، ولـو ركبـت عائشـة لمـا بقـى مهـاجرى ولا أنصـارى ولا أمـير ولا قـاضٍ إلا ركب؟ فما ظنك بالسوقة والحشوة، وبالدهماء، والعامة"[1].

وإذا كنـا قـد رأينـا نـوادر مولَّدة مـن قبـل الشيعة للإسـاءة ببعض الصحابة الكرام والسيدة عائشة رضى الله عنها ، ففى المقابل هناك حط – فى بعض النوادر – من قدر بعض العلويين، كما نرى فى هذه النادرة.

"أدخل رجل علوىّ بيته قحبة. فلما أرادها قالت: الدراهم، قال: دعى عنك هذا ويحك مع قرابتى من رسول الله ﷺ قالت: دع هذا ، عليك بقحاب قُمّ، هذا لا ينفق على قحاب بغداد"[2].

كذلك تعرضت بعض النوادر المذكور فيها المرأة لعقائد الأمم الأخرى التى امتزج بها المسلمون فى العصرين الأموى والعباسى – على وجه الخصوص – وأظهرت السخرية من هذه العقائد المخالفة للإسلام، كما نرى فى هاتين النادرتين.

"واستعمل معاوية[3] رجلاً من كلب، فذكر يومًا المجوس وعنده الناس فقال: لعن الله المجوس ينكحون أمهاتهم، والله لو أعطيت مائة ألف درهم ما نكحت أمى.

---

(1) الجاحظ: القول فى البغال، ص18- 20.

(2) البصائر والذخائر، 87/3.

(3) هو معاوية بن أبى سفيان ﷺ.

فبلغ ذلك معاوية فقال: قاتله الله، أترونه لو زادوه على مائة ألف فعل؟ وعزله"[1].

* * *

"نظر حمصىّ إلى ابنته وأعجبته عجيزتها فقال: يا بنية طوبتنا لو كنا مجوسيين"[2].

ومن الطريف أن نرى النادرة تتعرض لإبليس وأسرته خاصة امرأته بطريق السخرية، كما نرى فى هذه النادرة التى تعرضت لزوجة إبليس.

---

(1) نثر الدر، 356/7.

(2) البصائر والذخائر، 111/1، ويعلق أبو حيان التوحيدى على هذه النادرة بقوله: "هذا لفظ هذا الجاهل، والصواب فيه يخلُّ بالنادرة، ولا يُنكر اللحن والخطأ إذا كانت الحكاية عن سفيه أو ناقص". انظر: البصائر والذخائر، 111/1.

ويتباهى العرب بأنهم فى جاهليتهم لم ينكحوا أمهاتهم وبناتهم كما يفعل المجوسى، يقول دغفل النسَّابة فى ذلك: "يفضل العرب على العجم، بثلاث: بحفظ الأنساب وضياع أنسابهم، وعفتنا عن حرمنا إذ نكحوا حرمهم من الأمهات والأخوات، والفصاحة طليعتنا والبيان سجيتنا". انظر: البصائر والذخائر، 153/9.

وقيل للشعبى[1] "ما اسم امرأة إبليس لعنه الله؟ فقال: ذلك نكاح ما شهدناه"[2].

الدلالات الاجتماعية

نظن أن الدلالات الاجتماعية للنوادر المذكور فيها المرأة على قدر كبير من الأهمية؛ فهى تكشف لنا – إلى حد كبير – وضع المرأة فى العصرين الأموى والعباسى، وربما قبل ذلك أيضًا.

ولأن النادرة فن شعبى مجهول القائل، فهى كالمثل صوت الشعب، بل إنها أفصح من المثل فى تعريتها للمجتمع الذى قيلت فيه؛ لأنها أكثر جرأة فى كشف عيوب المجتمع، وتميل للنقد الساخر عند تعريتها ما فى المجتمع من عيوب.

وقد صوّر لنا العديد من النوادر جوانب اجتماعية عديدة تخص المرأة، وسوف نتناولها بالتفصيل الآن.

وضع الحرة والجارية كما تصوره النادرة

ومن الجوانب الاجتماعية التى تخص المرأة وتعرضت لها النادرة وضع المرأة الحرة والمرأة الجارية فى العصرين الأموى والعباسى كل على حدة.

---

(1) الشعبى هو عامر بن شراحيل، وقد ولد نحو سنة 19هـ، وكان مشهورًا بشدة حفظه، وتولى القضاء خلال خلافة عمر بن عبد العزيز ﷺ، وكانت وفاته سنة 105هـ، انظر عنه: المعارف، ص449- 451.

(2) الماوردى: أدب الدنيا والدين. حققه وعلق عليه: مصطفى السقا. القاهرة، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده، ط3، 1375هـ/1955م، ص284، وانظر أيضًا: أخبار الظراف والمتماجنين، ص61.

فقد كانت المرأة الحرة تتمتع بقسط ما من حريتها، فلبعض هؤلاء النساء الحرائر الحرية فى اختيار الزوج، والشرط عليه بألا يتزوج عليها أخرى فى حياتها، بل منهن من كانت تشترط عليه ألا يعاشر جواريه إلا بإذنها.

وبالطبع هذا ينطبق على عدد قليل من نساء أشراف القبائل كبنى هاشم وبنى أمية وبنى مخزوم.

وهناك نساء كن يتبادلن الحديث مع الرجال حول الشعر والأدب فى العصر الأموى كسكينة بنت الحسين التى يروى عنها أيضًا أنها كانت تجتمع بأشعب وتسمع بعض طرائفه، وهذه نادرة توضح قوة شخصيتها، وكيف أنها عاقبت أشعب بأسلوب ساخر لمخالفته إياها فى أمر ما.

غضبت سكينة[1] على أشعب "فى شىءٍ خالفها فيه فحلفت لتحلقن لحيته، ودعت بالحجام فقالت له: احلق لحيته، فقال له الحجام: انفخ شدقيك حتى أتمكن منك، فقال له: ..... أمرتك أن تحلق لحيتى أو تعلمنى الزمر! ....

فغضب الحجام وحلف ألا يحلق لحيته وانصرف، وبلغ سكينة الخبر وما جرى بينهما فضحكت وعفت عنه"[2].

---

(1) هى سكينة بنت الحسين بن على بن أبى طالب نبيلة شاعرة كريمة، من أجمل النساء وأطيبهن نفسًا، كانت سيدة نساء عصرها، تجالس الأجلة من قريش، وتجمع إليها الشعراء، فيجلسون بحيث تراهم ولا يرونها، وتسمع كلامهم فتفاضل بينهم، وتجيزهم. وكانت وفاتها سنة 117هـ. انظر الأعلام، 106/3.

(2) الأغانى، 175/19.

وكذلك من نساء الأشراف اللائى برزن فى العصر الأموى عائشة بنت طلحة، ولها مواقف مضحكة مع أشعب، كهذه النادرة.

"وغاضبت مصعب بن الزبير زوجه عائشة بنت طلحة[1]، فاشتد ذلك عليه وشكا أمره إلى خاصته، فقال له أشعب: فما لى إذا هى كلمتك؟ قال: عشرة آلاف درهم.

فأتى إليها فقال: يابنة عم رسول الله ﷺ، تفضلى بكلام الأمير، فقد استشفع بى عندك، وأجزل لى العطية إن أنت كلمته. قالت: لا سبيل إلى ذلك يا أشعب، وانتهرته. فقال: جعلت فداك! كلميه حتى أقبض عشرة آلاف درهم، ثم ارجعى إلى ما عودك الله من سوء الخلق. فضحكت فقامت فصالحته"[2].

وبعض نساء الخلفاء العباسيين فى العصر العباسى الأول كان لهن مكانة فى الحياة العامة، وفى بعض الأمور السياسية، ومنهن أم سلمة زوجة أبى العباس السفاح.

وتصوّر لنا بعض النوادر والحكايات الطريفة مواقف لها مع أبى دلامة مضحك الخلفاء المشهور آنذاك، مما يدل على أن شخصية المضحك لم تكن حكرًا على الخليفة ومن حوله من الرجال، بل كانت نساء الخلفاء يستمتعن هن أيضًا بمشاهدة هذا المضحك والحديث معه، كما نرى فى هذه النادرة.

---

(1) عائشة بنت طلحة بن عبيد الله: من بنى تيم بن مرة، أديبة، عالمة بأخبار العرب، فصيحة، أمها أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق، وخالتها عائشة أم المؤمنين، وكانت أشبه الناس بها، وكانت جميلة لا تستر وجهها، وتوفيت سنة 101هـ. انظر: الأعلام، 240/3.

(2) جمع الجواهر، ص69.

"دخل أبو دلامة على أمّ سلمة بنت يعقوب بن مسلمة المخزومية زوجة أبى العباس السفاح يعزيها عنه فبكى، وأنشد قصيدة منها:

أمسيتَ بالأنبار يا بن محمد ... لا تستطيع من البلاد حويلا

ويلى عليك وويل أهلى كلّهم ... ويلاً وهولاً فى الحياة طويلا

فلتبكينَّ لك النساء بعبرة ... وليبكينَّ لك الرجال عويلا

مات الندى إذ مت يا بن محمد ... فجعلته لك فى التراب عديلا

إن أجملوا فى الصبر عنك فلم يكن ... صبرى ولا جلدى عليك جميلا

يجدون منك خلائفًا وأنا امرؤ ... لو عشت دهرى ما وجدت بديلا

إنى سألت الناس بعدك كلهم ... فوجدت أسمح من وجدت بخيلا

ألشقوتى أخرت بعدك للذى ... يدع العزيز من الرجال ذليلا

ألشقوتى أخرت بعدك للذى ... يدع السمين من العيال هزيلا

فقالت له أم سلمة: يا زند، ما أصيب أحد بأمير المؤمنين غيرى وغيرك؟ قال: ولا سواء، أنت لك ولد منه تسلين به، وأنا لا ولد لى منه.

فضحكت أم سلمة ولم تكن ضحكت منذ مات أبو العباس وقالت: يا زند، ما تدع أحدًا إلا أضحكته!"[1].

وهذه نادرة تدل على أن بعض النساء الحرائر كن يشترطن على أزواجهن شروطًا تدل على قوة شخصيتهن، وإحساسهن بأنفسهن وكيانهن.

---

(1) المصدر السابق، ص107- 108، وانظر أيضًا: أخبار الظراف والمتماجنين، ص12.

قيل: "أتى عدى بن أرطاة شريحاً القاضى[1] ومعه امرأة له من أهل الكوفة يخاصمها إليه. فلما جلس عدى بين يدى شريح، قال عدى: أين أنت؟ قال: بينك وبين الحائط، قال: إنى امرؤ من أهل الشام، قال: بعيد الدار، قال: وإنى قدمت العراق، قال: خير مقدم، قال: وتزوجت هذه المرأة، قال: بالرفاء والبنين، قال: وإنها ولدت غلامًا، قال: ليهنك الفارس.

قال: وقد أردت أن أنقلها إلى دارى، قال: المرء أحق بأهله، قال: كنت شرطت لها دارها، قال: الشرط أملك، قال: اقض بيننا، قال: قد فعلت، قال: فعلى من قضيت؟ قال: على ابن أمك"[2].

وإذا كانت المرأة الحرة تتمتع بقدر من الحرية، يتفاوت حدّه من وسط اجتماعى لآخر، ومن بيئة لأخرى ومن أسرة لأخرى أيضًا – فإن المرأة الأمة كان وضعها مختلفاً، فلم يكن لها – فى الغالب – من الأمر شىء، فكانت تباع وتشترى، إلا إذا أنجبت فعند ذلك تصير أم ولد، ولا يجوز لمالكها بيعها، وتعتق بعد وفاته.

ومع أن المرأة الجارية كانت لا تمتلك حريتها، إلا إذا أعتقها سيدها أو مات عنها بعد أن أنجبت منه، فإنها كانت أشدّ أثرًا فى المجتمع العباسى – على وجه الخصوص – لمشاركتها الفعالة فيه،

---

(1) هو شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم الكندى، أبو أمية، من أشهر القضاة الفقهاء فى صدر الإسلام، أصله من اليمن، ولى قضاء الكوفة فى زمن عمر وعثمان وعلىّ ومعاوية، واستعفى فى أيام الحجاج، فأعفاه سنة 77هـ، وكان ثقة فى الحديث، مأمونًا فى القضاء، له باع فى الأدب والشعر، وعُمِّر طويلاً، ومات بالكوفة سنة 78هـ. انظر: الأعلام، 161/3.

(2) نهاية الأرب، 8/4 - 9.

فكانت أكثر خروجًا فيه للحياة العامة عن المرأة الحرة التى تشتد الغيرة عليها بخلاف الجارية[1].

ونخص بالذكر منهن النساء الجوارى اللائى مارسن الغناء أو العزف على الآلات الموسيقية أو الرقص أو قلن الشعر.

وقد عرضت النادرة للجوارى وكيف يبعن ويشترين، وعرضت لبعض الأعمال التى كن يقمن بها، وتحدثت عن أنواعهن والماهرات منهن فى الموسيقى أو الغناء أو الشعر أو غير ذلك.

وكذلك تحدثت النادرة عن الجارية التى تخدم فى البيوت، وغالبًا يأتى الحديث عنها بشكل هامشى، فليست – فى الغالب –

---

(1) يعرض لنا الجاحظ موقف الكثير من رجال عصره فى تفضيلهم الجوارى على المهيرات، بقوله: "قال بعض من احتج للعلة التى من أجلها صار أكثر الإماء أحظى عند الرجال من أكثر المهيرات: إن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمل كل شيء منها وعرف، ما خلا حظوة الخلوة، فأقدم على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة. والحرة إنما يستشار فى جمالها النساء، والنساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن قليلاً ولا كثيرًا. والرجال بالنساء أبصر. وإنما تعرف المرأة من المرأة ظاهر الصفة، وأما الخصائص التى تقع بموافقة الرجال فإنها لا تعرف ذلك.

وقد تحسن المرأة أن تقول: كأن أنفها السيف، وكأن عينها عين غزال، وكأن عنقها إبريق فضة.وكأن ساقها جمارة، وكأن، شعرها العناقيد، وكأن أطرافها المدَارِى، وما أشبه ذلك. وهناك أسباب أخرى بها يكون الحب والبغض". انظر: رسائل الجاحظ "من كتاب النساء"، 3/157- 158.

وفى الرواية التالية نرى اختلاف أذواق الناس فى العصر العباسى فى تفضيل المهيرة أو الجارية، وذكر علة كل فريق فيما يذهب إليه.

"ذُكر الإماء عند بعض الخلفاء فقال: الإماء ألذ مجامعة وأغلب شهوةً وأحسن فى التبذل وآنق فى التدلل، فقال بعض الحاضرين: تردد ماء الحياء فى وجه الحرة أحسن من تبذل الأمة". انظر: البصائر والذخائر، 7/196.

الشخص الرئيس فى النادرة، بل إن دورها يكون ثانويًّا فيها كما سوف نرى.

وها هى ذى نادرة تعرض جانبًا مما كان يدور فى سوق النخاسين، حيث يتم بيع الجوارى والعبيد، وفى هذه النادرة نرى جارية تباع، ويعرض النخاس – بشكل ساخر – بعض عيوبها على الأعرابى الذى يشتريها، ويضحكنا أنه لا يعبأ بهذه العيوب، فعنده حل لكل عيب من عيوبها.

"دخل أعرابى سوق النخاسين[1] يشترى جارية. فلما اشتراها وأراد الانصراف، قال النخَّاس: فيها ثلاث خصال، فإن رضيت وإلا فدعها، قال: قل: قال: إنها ربما غابت أيامًا ثم تعود إذا طلبت، قال: كأنك تعنى أنها تأبق؟[2]، قال: نعم، قال: لا عليك أنا والله أعلم الناس بأثر الذر على الصفا، فلتأخذ أى طريقٍ شاءت فإنا نردها، ثم ماذا؟

قال: إنها ربما نامت فقطرت منها القطرة بعد القطرة، قال: كأنك تعنى أنها تبول بالفراش؟ قال: نعم، قال: لا عليك فإنها لا تتوسد عندنا إلا التراب، فلتبل كيف شاءت، ثم ماذا؟

قال: إنها ربما عبثت بالشىء تجده عندنا، قال: كأنك تعنى أنها تسرق ما تجد؟ قال: نعم، قال: لا عليك فإنها والله ما تجد ما يقوتها، فكيف ما تسرقه؟ وأخذ بيدها وانطلق بها"[3].

---

(1) سوق النخاسين، سوق الجوارى والعبيد.

(2) تأبق: تفر.

(3) نثر الدر، ج6، قسم2، ص483.

والجوارى بالطبع أنواع حسب البلاد التى يأتين منها، فهناك الجوارى الروميات الشقراوات وهناك الجوارى السنديات والهنديات وهناك الجوارى الحبشيات، وقد حدثنا الجاحظ فى أحد كتبه عن حب كل إقليم لنوع معين من الجوارى[1].

وهذه نادرة تتعرض لجارية جشية، كانت عند والد جحا.

"وماتت لأبيه جارية حبشية: فبعث به إلى السوق ليشترى لها كفنًا، فأبطأ عليه حتى أنفذ غيره، وحمل الكفن، وحملت جنازتها.

فجاء جحا – وقد حملت – فجعل يعدو فى المقابر، ويقول: رأيتم جنازة جارية حبشية، كفنها معى؟"[2].

وكثيرًا ما نرى قصور الخلفاء تكتظ بالجوارى الحسان، ويتم داخل هذه القصور التنافس بين هؤلاء الجوارى لنيل الحظوة لدى الخليفة، كما توضح لنا ذلك تلك النادرة.

---

(1) يقول الجاحظ فى كتاب "فخر السودان على البيضان": "قالوا: وإن نظر البيضان إلى نساء السودان بغير عين الشهوة فكذلك السودان فى نساء البيضان. على أن الشهوات عادات وأكثرها تقليد. من ذلك أن أهل البصرة أشهى النساء عندهم الهنديات وبنات الهنديات والأغوار. واليمن أشهى النساء عندهم الحبشيات وبنات الحبشيات. وأهل الشام أشهى النساء عندهم الروميات وبنات الروميات. وكل قوم فإنما يشتهون جلبهم وسبيهم. إلا الشاذ، وليس على الشاذ قياس". انظر: رسائل الجاحظ "كتاب فخر السودان على البيضان"، 215/1.
ويعبّر عبد الملك عبد مروان عن نظرته ونظرة كثير من رجال عصره للجوارى اللائى كثرن فى المجتمع الإسلامى مع نهاية عصر صدر الإسلام وخلال العصر الأموى – يقول: "من أراد أن يتخذ جارية للمتعة فليتخذها بربرية ومن أراد للولد فليتخذها فارسية، ومن أراد للخدمة فليتخذها رومية". انظر: العقد الفريد، 111/7.

(2) نثر الدر، 308/5.

"أُدخل على المنصور جاريتان فأعجبتاه، فقالت التى دخلت أولاً: يا أمير المؤمنين، إن الله فضلنى على هذه بقوله: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾[1] وقالت الأخرى: لا، بل الله فضلنى عليها بقوله: ﴿ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾[2]"[3].

والجوارى اللائى كن يعرضن أمام الخلفاء عسى أن يشتروهن، كن يتمتعن – فى الغالب – بجمال باهر، كما نرى فى هذه النادرة.

عن إسحاق[4] "قال: كنا عند المعتصم، فعرضت عليه جارية، فقال: كيف ترونها؟ فقال واحد من الحاضرين: امرأتى طالق إن كان الله ﷻ خلق مثلها، وقال الآخر: امرأتى طالق إن كنت رأيت مثلها، وقال الثالث: امرأتى طالق وسكت.

فقال المعتصم: إن كان ماذا؟ فقال: إذا كان لا شىء، فضحك المعتصم حتى استلقى، وقال: ويحك ما حملك على هذا؟ قال: يا سيدى هذان الأحمقان طلقا لعلة، وأنا طلقت بلا علة"[5].

وأكثر الجوارى اللائى يذكرن فى النوادر – كما قلنا من قبل – من الجوارى اللائى يخدمن فى البيوت، ويأتى الحديث عنهن داخل النوادر عرضًا، ويكون دورهن ثانويًّا فى هذه النوادر.

---

(1) سورة التوبة، من الآية 100.

(2) سورة الضحى، الآية 4.

(3) نهاية الأرب، 18/4.

(4) هو إسحاق بن إبراهيم الموصلى.

(5) أخبار الحمقى والمغفلين، ص185- 186.

وها هى ذى أمثلة لنوادر فيها نساء جوارٍ يعملن بالخدمة فى بيوت أسيادهن.

"أضاف رجل رجلاً، فقال المضيف: يا جارية! هاتى خبزًا وما رزق الله، فجاءت بخبز وكامخ؛ ثم قال أيضًا: يا جارية؟ هاتى خبزًا وما رزق الله، فجاءت بخبزٍ وكامخ؛ فقال الضيف: يا جارية! هاتى خبزًا ودعى ما رزق الله"[1].

* * *

"دخل علىٌّ الأعمى على يوسف بن كل خير، وقد تغدى، فقال: يا جارية هاتى لأبى الحسن غداء، قالت: لم يبق عندنا شىء، قال: هاتى – ويلك – ما كان، فليس من أبى الحسن حشمة.

ولم يشك علىّ أنه سيؤتى برغيف ملطخ، وبرقاقة ملطخة، وبسكر وبقية مرق، وبعرق وبفضلة شواء، وببقايا ما يفضل فى الجامات والسكرَّجات[2].

فجاءت بطبق ليس عليه إلا رغيف أرز قاحلٍ، لا شىء معه غيره. فلما وضعوا الخوان بين يديه، فأجال يده فيه، وهو أعمى، فلم يقع إلا على ذلك الرغيف. وقد علم أنَّ قوله: ليس منه حشمة، لا يكون إلا مع القليل. فلم يظن أن الأمر بلغ ذلك. فلما لم يجد غيره، قال: ويلكم ولا كل هذا بمرة، رفعتم الحشمة كلها"[3].

* * *

(1) أخبار الظراف والمتماجنين، ص106- 107.

(2) الجامات والسكرجات: من أنواع الأطباق التى يوضع فيها الطعام.

(3) البخلاء للجاحظ، ص120.

باع مزبد جارية على أنها طباخة، ولم تحسن شيئًا فردت، فلم يقبلها، وقدِّم إلى القاضى، وطولب بأن يحلف أنه ملكها وكانت تطبخ وتحسن.

فاندفع وحلف بيمين غليظة أنه دفع إليها جرادة فطبخت منها خمسة ألوان وفصلت منها شريحتين بالقديد سوى الجنب، فإنها شوته.

فضحك من حضر، وأيس خصومه من الوصول منه إلى شيءٍ فخلوه"[1].

ذوق الرجل فى المرأة كما صورته النادرة

يظهر الكثير من النوادر أن الرجال كانوا يفضلون فى النساء الحرائر اللائى يرغبون فى الزواج منهن أن يكنَّ جميلات ومنجبات، وبهن صفات أخلاقية طيبة[2].

فى حين كانوا يشترطون فى الجارية الجمال، وإتقان بعض الصنائع كحسن الطبخ أو إجادة الغناء أو الرقص أو غير ذلك.

وقد حدثنا الجاحظ فى مواضع مختلفة عن نظرة الرجال فى عصره للنساء اللائى يفضلون الزواج منهن أو شراءهن إن كن جوارى. يقول فى ذلك:

---

(1) نثر الدر، 244/3.

(2) "وسئل أعرابى فى النساء، وكان ذا تجربة وعلم بهن؛ فقال: أفضل النساء أطولهن إذا قامت، وأعظمهن إذا قعدت، وأصدقهن إذا قالت؛ التى إذا غضبت حلمت، وإذا ضحكت تبسمت، وإذا صنعت شيئًا جودت؛ التى تطيع زوجها، وتلزم بيتها؛ العزيزة فى قومها، الذليلة فى نفسها، الودود الولود، وكل أمرها محمود". انظر: العقد الفريد، 116/7.

"ورأيت أكثر الناس من البصراء بجواهر النساء، الذين هم جهابذة هذا الأمر، يقدمون المجدولة، والمجدولة من النساء تكون فى منزلةٍ بين السمينة والممشوقة.

ولا بد من جودة القد، وحسن الخرط، واعتدال المَنْكبين، واستواء الظهر، ولا بد من أن تكون كاسية العظام، بين الممتلئة والقضيفة.

وإنما يريدون بقولهم: مجدولة. جودة العَصَب، وقلة الاسترخاء، وأن تكون سليمةً من الزوائد والفضول.

وكذلك قالوا: خمصانة وسيقانة[1]، وكأنها جان، وكأنها جدل عنان، وكأنها قضيب خيزران.

والتثنى فى مشيها أحسن ما فيها، ولا يمكن ذلك الضخمة والسمينة، وذات الفضول والزوائد.

على أن النحافة فى المجدولة أعم، وهى بهذا المعنى أعرف، تُحَبَّبُ على السمان الضخام، وعلى الممشوقات والقضاف[2]، كما يحبب هذه الأصناف على المجدولات.

ووصفوا المجدولة بالكلام المنثور فقالوا: أعلاها قضيب، وأسفلها كثيب"[3].

---

(1) الخمصانة، بفتح الخاء وضمها: الضامرة البطن. والسيقانة: الطويلة المشوقة.

(2) القضيفة: الدقيقة النحيفة لا عن هزال.

(3) رسائل الجاحظ. "من كتابه فى النساء"، 3/158- 159. وانظر أيضًا: الجاحظ: البرصان والعرجان والعميان والحولان. تحقيق: عبد السلام هارون. بيروت، دار الجيل، ط1، 1990م، ص76. ورسائل الجاحظ، 4/163.

وفى النادرة التالية نرى الذوق العربى فى – العصر الأموى – فى المرأة التى ترغب للزواج منها.

"قال: وكتب الحجاج إلى الحكم بن أيوب[1]: "اخطب على عبد الملك بن الحجاج امرأة جميلة من بعيد، مليحة من قريب، شريفة فى قومها، ذليلة فى نفسها، أمة لبعلها". فكتب إليه: "قد أصبتها لولا عظم ثدييها!". فكتب إليه الحجاج: لا يحسن نحر المرأة حتى يعظم ثدياها"[2].

وبعض الرجال كانوا يرغبون – وبخاصة فى العصر العباسى – فى الزواج من النساء الثريات، كما نرى فى هذه النادرة.

"وألحَّ أبو القماقم على قوم عند الخطبة إليهم، يسأل عن مال المرأة ويحصيه، ويسأل عنه.

فقالوا: قد أخبرناك بمالها، فأنت أى شىء مالك؟

قال: وما سؤالكم عن مالى؟! الذى لها يكفينى ويكفيها"[3].

وهذا رجل غريب الشأن تزوج من امرأة صغيرة، وعلل هذا فى النادرة التالية تعليلاً يدل على سوء رأيه فى المرأة.

"تزوج رجل امرأة صغيرة فقيل له فى ذلك، فقال: إنما المرأة شر، وكلما أقللت من الشر كان خيرًا"[1].

---

(1) هو الحكم بن أيوب بن الحكم بن عقيل الثقفى، زوج زينب بنت يوسف، وهى أخت الحجاج. ولما ولى الحجاج العراق استعمل الحكم بن أيوب على البصرة، ثم عزله وولى غيره، ثم رده إليها.

(2) البيان والتبيين، 8/4، وانظر أيضًا: العقد الفريد، 115/7.

(3) البخلاء للجاحظ، ص125.

(1) أخبار الحمقى والمغفلين، ص140.

وهذا رجل آخر يبدو أنه لم يكن يرغب فى الزواج، ولكنه تزوج على كبر سنه، وعلل موقفه ذلك فى تلك النادرة بشكل ساخر أيضًا يدل على سوء ظنه فى الأبناء.

"وتزوج أعرابى على كبر سنه، فقيل له فى ذلك، فقال: أبادره باليتم، قبل أن يبادرنى بالعقوق"[1].

وفى النادرة التالية نرى رجلاً يرغب فى الزواج من امرأة يخشى أن تكون عسراء لما ناله فى أولاده من زوجته السابقة التى كانت عسراء، وورث أولاده منها تلك الصفة.

"وقال أبو القُمَاقِم: كان لنا جار تزوج امرأة عسراء، فلما ماتت المرأة جعل يخطب، فكان يُدَلُّ على ما يسأل الناس عن جمالها ومالها وعفافها وحسبها، وهو يسأل فيقول: خبرونى عنها: عسراء هى؟ وخبرونى عن أمها. قالوا: ونحن ما علمنا بذلك، ولا سمعنا بأحدٍ يسأل عن هذه المسألة. فكانوا يضحكون منه، ويعتذر إليهم بما ابتلى به فى جميع ولده"[2].

وهذه نادرة نرى فيها رجلاً يطلب امرأة نادرة فى صفاتها، وتفاجئه الدلالة بأنها ليست موجودة على الأرض.

"ونظر خالد بن صفوان[1] إلى جماعة فى المسجد بالبصرة، فقال: ما هذه الجماعة؟ قالوا: على امرأة تدل على النساء. فأتاها فقال

---

(1) نهاية الأرب، 7/4.

(2) البرصان والعرجان، ص559.

(1) هو خالد بن صفوان المشهور ببلاغته وفصاحته، وهو بصرى، وقد وفد على عمر بن عبد العزيز، وتوفى سنة 135هـ. انظر عنه: معجم الأدباء، 3/1231- 1236، وسير أعلام النبلاء، 6/226.

لها: ابغنى امرأة. قالت: صفها لى. قال: أريدها بكرًا كَثَيِّبٍ، أو ثيبًا كبكر، حلوة من قريب، فخمة من بعيد؛ كانت فى نعمة فأصابتها فاقة، فمعها أدب النعمة وذل الحاجة، فإذا اجتمعنا كنا أهل دنيا، وإذا افترقنا كنا أهل آخرة. قالت: لقد أصبتها لك. قال: وأين هى؟ قالت: فى الرفيق الأعلى من الجنة فاعمل لها!"[1].

ذوق المرأة فى الرجل كما صورته النادرة

وكما يطلب الرجال من النساء اللائى يرغبون فى الزواج منهن توفر قدر من الجمال فيهن، فقد كانت النساء – أو الكثير منهن – يرغبن فى الزواج من الرجل الوسيم، وتظهر لنا بعض النوادر ذلك الميل فى بعض النساء، كما نرى فى هاتين النادرتين.

قال أبو العيناء: "خطبتُ امرأة فاستقبحتنى، فكتبت إليها:

فإن تنفرى من قبح وجهى فإننى أريب أديب لا غبىّ ولا فدْمُ

فأجابتنى: ليس لديوان الرسائل أريدك"[2].

* * *

"وخطب ثمامة العوفىّ امرأة فسألت عن حرفته، فكتب إليها يقول:

وسائلة عن حرفتى قلت حرفتى مقارعة الأبطال فى كل مازقِ

وضربى طُلَى الأبطال بالسيف معلمًا إذا زحف الصفان تحت الخوافقِ

---

(1) العقد الفريد، 116/7.

(2) نهاية الأرب، 21/4.

فلما قرأت الشعر، قالت للرسول: قل له: فديتك أنت أسد فاطلب لك لبؤة، فإنى ظبية أحتاج إلى غزال"[1].

بل إن المرأة الجارية كانت ترغب فى أن يكون سيدها وسيمًا، وتستاء جدًّا لو كان قبيحًا، كما نرى فى هذه النوادر.

"ودخل قاسم منزل الخوارزمى النخاس، فرأى عنده جارية كأنها جان، وكأنها خُوط بانٍ، وكأنها جَدْل عِنان، وكأنها الياسمين، نعمةً وبياضًا؛ فقال لها: أشتريك يا جارية؟ فقالت: "افتح كيسك تسر نفسك"! ودخلت الجارية منزل النخاس، فاشتراها وهى لا تعلم، ومضى إلى المنزل، ودفعها الخوارزمى إلى غلامه، فلم تشعر الجارية إلا وهى معه فى جوف بيت، فلما نظرت إليه وعرفت ما وقعت فيه قالت له: ويلك! إنك والله لن تصل إلىَّ إلا بعد أن أموت! فإن كنت تجسر على [وطء][2] من قد أدرجوه فى الأكفان فدونك! والله إن زلت منذ رأيتك، ودخلت إلى الجوارى، أضف [لهنّ] قبحك وبلية امرأتك بك! فأقبل عليها يكلمها بكلام المتكلمين، فلم تقبل منه، فقال: فلم قلت لى: "افتح كيسك تسر نفسك"؟ وقد فتحت كيسى فدعينى أسر نفسى! وهو يكلمها وعين الجارية إلى الباب، ونفسها فى توهم الطريق إلى منزل النخاس. فلم يشعر قاسم حتى وثبت وثبة إلى الباب كأنها غزال، ولم يشعر الخوارزمى إلا والجارية بين يديه مغشىّ عليها. فكرَّ قاسم إليه راجعًا وقال: ادفعها إلىّ أشفى نفسى منها. فطلبوا إليه، فصفح

(1) المصدر السابق، 22/4.

(2) فى الأصل كلمة لا يجوز نشرها.

عنها، واشتراها فى ذلك المجلس غلام أملح منها، فقامت إليه فقبلت فاه، وقاسم ينظر، والقوم يتعجبون مما تهيأ له وتهيأ لها!"[1].

* * *

"وأما عيسى بن مروان كاتب أبى مروان عبد الملك بن أبى حمزة فإنه كان شديد التغزل والتصندل[2]، حتى شرب لذلك النبيذ وتظرف[3] بتقطيع ثيابه وتغنى أصواتًا، وحفظ أحاديثَ من أحاديث العشاق [و] من الأحاديث التى تشتهيها النساء وتفهم معانيها. وكان أقبح خلق الله تعالى أنفًا، حتى كان أقبح من الأخنس، ومن الأفطس، والأجدع، فإما أن يكون صادق ظريفة، وإما أن يكون تزوجها، فلما خلا معها فى بيتٍ وأرادها على ما يريد الرجل من المرأة، امتنعت، فوهب لها ومناها، وأظهر تعشقها، وأراغها بكل حيلة. فلما لم تجب قال لها: خبرينى، ما الذى يمنعك؟ قالت: قبح أنفك وهو يستقبل عينى [وقت الحاجة]، فلو كان أنفك فى قفاك لكان أهون علىَّ! قال لها: جعلت فداك! الذى بأنفى ليس هو خلقة وإنما هو ضربة ضربتها فى سبيل الله تعالى. فقالت واستغربت ضحكًا: أنا ما أبالى، فى سبيل الله كانت أو فى سبيل الشيطان. إنما بى قبحه. فخذ ثوابك على هذه الضربة من الله أما أنا فلا"[1].

* * *

---

(1) الحيوان، 6/262- 263.

(2) تصندل: تغزل مع النساء.

(3) تظرف: تكلف الظرف.

(1) الحيوان، 6/263- 264.

"ورووا فى الملح أن فتى قال لجارية له، أو لصديقه له: ليس فى الأرض أحسن منى: ولا أملح منى. فصار عندها كذلك، فبينا هو عندها على هذه الصفة إذ قرع عليها الباب إنسان يريده، فاطَّلَعَتْ عليه من خرق الباب، فرأت فتى أحسن الناس وأملحهم، وأنبلهم وأتمهم، فلما عاد صاحبها إلى المنزل قالت له: أَوَما أخبرتنى أنك أملح الخلق وأحسنهم؟ قال: بلى! وكذلك أنا! فقالت: فقد أرادك اليوم فلان، ورأيته من خرق الباب، فرأيته أحسن منك وأملح! قال: لعمرى إنه لحسن مليح، ولكن له جنية تصرعه فى كل شهر مرتين! – وهو يريد بذلك أن يسقطه من عينها – قالت: أوما تصرعه فى الشهر إلا مرتين؟ أما والله لو أنى جنية لصرعته فى اليوم ألفين!

وهذا يدل على أن صرع الشيطان للإنسان ليس هو عند العوام إلاَّ على جهة ما يعرفون من الجماع"[1].

وكما أن المرأة – الحرة والجارية – تفضل الرجل الوسيم على القبيح، فإنها فى الوقت نفسه تفضّل الشاب على الشيخ، كما نرى فى هاتين النادرتين.

"مر رجل أشمط[1] بامرأة كاملة فقال: إن كان لك زوج فبارك الله لك فيه، وإلا فأعلمينا. فقالت: كأنك تخطبنى! ثم قالت: إن فىّ شينًا[2]؛ قال: وما هو؟ قالت: شيب فى رأسى. فثنى عنان دابته، فقالت:

---

(1) المصدر السابق، 6/259- 260.

(1) الأشمط من الرجال: الذى يخالط بياض شعره سواده. والشمط فى الرجل أيضًا: شيب اللحية.

(2) الشين: العيب.

على رسلك[1]! لا والله ما بلغت عشرين سنة، ولا رأيت فى رأسى شعرة بيضاء، ولكن أحببت أن أعلمك أنى أكره منك مثل ما تكره منى"[2].

* * *

"قال رجل: قلت لجارية أريد شراءها: لا يريبك شيبى فإن عندى قوة، فقالت: أيسرك أن عندك عجوزًا مغتلمة؟"[3].

وليست هذه قاعدة عامة فى أن كل النساء كن يرغبن – فى المقام الأول – فى الزواج من الرجل الوسيم والشاب الصغير، بل إن بعضهن كن يفضلن الرجل الكثير المال مهما يكن شكله وسنه وعقله[4]، والبعض الآخر كن يفضلن الرجل البليغ أو صاحب المكانة،

---

(1) على رسلك: على مهلك.

(2) ربيع الأبرار، 3/42- 43.

(3) نهاية الأرب، 4/18.

(4) وها هى ذى نادرة تصوِّر لنا امرأة فضلت رجلاً دميمًا على رجل وسيم؛ لأن الأول كثير المال والثانى فقير.

"وخطب رجل جميل امرأة، وخطبها [معه] رجل دميم فتزوجت الدميم لماله، وتركته، فقال:

ألا يا عباد الله ما تأمرونني ... بأحسن من صلى وأقبحهم بعلا

يَدِبُّ على أحشائها كل ليلة ... دبيبَ القَرَنْبَى بات يقرو نقًا سهلا".

انظر: الحيوان، 3/524- 525.

وهذه نادرة نرى فيها رجلاً يزوج ابنته من شخص مقل فى عقله كثير فى ماله، وتعرض لنا النادرة نتيجة هذا الزواج على الأب وابنته.

"وعن الأصمعى قال: أخبرنى رجل من بنى العنبر عن رجل من أصحابه وكان مقلاً؛ فخطب إليه مكثر من مال مقل من عقل، فشاور فيه رجلاً يقال له أبو يزيد؛ فقال: لا تفعل، ولا تزوج إلا عاقلاً دينًا؛ فإنه إن لم يكرمها لم يظلمها. ثم شاور رجلاً آخر يقال له أبو العلاء، فقال له: زوجه، فإن ماله لها وحمقه على نفسه. فزوجه، فرأى منه ما يكره فى نفسه وابنته؛ وأنشد فقال:

ألهفى إذ عصيْتُ أبا يزيدٍ ... ولهفى إذ أطعت أبا العلاء=

وتلك طبيعة النساء فى كل عصر، فلهن أذواق مختلفة فى الأزواج الذين يرغبن فى الزواج منهم.

والنادرة التالية تصوِّر لنا علاقة زواج بين امرأة باهرة الجمال ورجل قبيح جدًّا، ولعل هذه المرأة تزوجته لشعره وفصاحته ولأنه مشهور بين الخوارج.

"دخل عِمْرَان بن حِطَّان[1] يومًا على امرأته، وكان قبيحًا دميمًا قصيرًا، وقد تزينت، وكانت حسناء، فلم يتمالك أن أدام النظر إليها، فقالت: ما شأنك؟ قال: لقد أصبحت والله جميلة.

فقالت: أبشر! فإنى وإياك فى الجنة؛ قال: ومن أين علمت؟ قالت: لأنك أعطيت مثلى فشكرت، وابتليت بمثلك فصبرت، والصابر والشاكر فى الجنة"[1].

وكثير من النساء كن لا يرغبن فى الزواج من الرجل البخيل، حتى إن بعضهنّ إذا اكتشفن بعد الزواج بخل الأزواج رغبن عند ذلك فى الانفصال عنهم، كما نرى فى هذه النادرة.

"وعن عمه، قال: حكى لى أبو السَّرِىّ القارىء، قال: قال لى أبو محمد [عبيد الله بن أحمد] بن معروفٍ: تزوجت امرأة، فلما حصلت فى

=وكانت هفوة من غير ريحٍ وكانت زلقة من غير ماء"

انظر: العقد الفريد، 108/7.

(1) هو عمران بن حطان بن ظبيان السدوسى البصرى، عالم مشهور، وهو من زعماء الخوارج، له أشعار وخطب، وكانت وفاته سنة 84هـ، وانظر عنه: معجم الأدباء، 802/2؛ 1858/4؛ 2514/6.

(1) أخبار الظراف والمتماجنين، ص144.

دارى طلبت الخروج، فقلت لعجوز: سليها! فسألتها، فقالت: كنت أظن أنه ظريف، وإذا به عَرِيف؛ رأيته يقسم الخبز على جواريه وهو حاضر لئلا يفوته رغيف!"[1].

تعرض النادرة للعلاقات الزوجية

تعرضت النادرة للعلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة، وفى الغالب تصوِّر النادرة هذه العلاقة من وجهة نظر الرجل، فهو الذى يروى هذه النوادر، فيرويها من خلال رأيه هو فى المرأة وفى العلاقة الزوجية.

وصورت لنا بعض النوادر المشاكل التى كانت تقع داخل بعض البيوت بين الأزواج والزوجات، ويتم عرض هذه المشاكل فى هذه النوادر بشكل ساخر، وأحيانًا يتدخل بعض الرجال لإصلاح هذه المشاكل بين الأزواج وتكون المفارقة أن هذا المصلح بدلاً من أن يقوم بالإصلاح يزيد الأمر سوءًا، ويفسد العلاقة بشكل أشد عما كانت عليه قبل تدخله للإصلاح بين الزوجين، كما نرى فى هذه النادرة.

"ووقع بين الأعمش وبين امرأته وحشة، فسأل بعض أصحابه من الفقهاء أن يرضيها ويصلح بينهما، فدخل إليها، وقال: إن أبا محمد شيخ كبير فلا يزهدنك فيه عمش عينيه، ودقة ساقيه، وضعف ركبتيه، ونتن إبطيه، وبخر فيه، وجمود كفيه.

فقال له الأعمش: قم قبحك الله فقد أريتها من عيوبى ما لم تكن تعرفه"[1].

---

(1) المصدر السابق، ص44.

(1) المستطرف، ص533.

وهذه بعض النوادر التى تصور لنا الخلافات التى كانت تقع بين الأزواج، ونظرة كل واحد من الزوجين للآخر فى إطار من الكوميديا والسخرية.

"شكا رجل امرأته إلى أبى العيناء، فقال له أبو العيناء: أتحب أن تموت هى؟ قال: لا والله الذى لا إله إلا هو، قال: لم ويحك وأنت معذب بها؟ قال: أخشى والله أن أموت من الفرح"[1].

* * *

"يقال: اعتلت امرأة ابن مضاء الرازى فجعلت تقول: ويلى. كيف تعمل إن مت؟ فقال ابن مضاء: ويلى أنا كيف أعمل إن لم تموتى؟!"[2].

* * *

"أعرابى خاصمته امرأته إلى السلطان، فقيل له: ما صنعت؟ قال: خيرًا، كبها الله لوجهها، وأمر بى إلى السجن!"[1].

* * *

"وقال أبو هِفَّان: سمعت بعض الحمقى يخاصم امرأته وفى جيرانه أحمق، فاطلع عليهم وقال: يا هذا، اعمل مع هذه كما قال الله تعالى: إما إمساك بأيش اسمه أو تسريح بأيش اسمه، قال: فضحكت من بيانه"[2].

---

(1) البصائر والذخائر، 198/5.

(2) المصدر السابق، 110/4.

(1) البيان والتبيين، 7/4.

(2) البصائر والذخائر، 74/4.

* * *

"سمعت أبا حامدٍ يقول: قَدَّمَتْ امرأة بعلها إلى أبى عمر القاضى فادعت عليه مالاً فاعترف به فقالت: أيها القاضى، خذ بحقى ولو بحبسه، فتلطف بها لئلا تحبسه فأبت إلا ذلك، فأمر به، فلما مشى خطوات صاح أبو عمر بالرجل وقال له: ألست ممن لا يصبر على النساء؟ ففطن الرجل فقال: بلى، أصلح الله القاضى، فقال: خذها معك إلى الحبس، فلما عرفت الحقيقة ندمت على لجاجها وقالت: ما هذا أيها القاضى؟ فقال لها: ولك عليه حق وله عليك حق، وما لك عليه لا يبطل ما له عليك، فعادت إلى السلاسة والرضا"[1].

* * *

"تزوج فقير غنية، فضاق صدرها لضيق بيته، فقال لها: قومى، فقامت فلم يمس رأسها السقف، فقال لها: هبى أن سطحه يقرب السماء فما ينفعك إذا لم يمس رأسك؟ ثم قال لها: نامى، فنامت فلم تمس قدماها الجدار، فقال: هبى الجدار عند جبل قاف فما ينفعك بعد أن لم تمسه قدماك؟ فقالت: حسبى حسبى، رضيت"[1].

وتعرض علينا النادرة التالية مشكلة مضحكة بين زوجين، وكان رأى القاضى الذى تدخل فى خلافهما مثيرًا للسخرية.

"تزوج بعض الخصيان فى زمن شريح بامرأة فأتت بولد فتبرأ الخصىّ منه وترافعا إلى شريح.

---

(1) المصدر السابق، 38/6.

(1) ربيع الأبرار، 306/1.

فألحق الولد به وألزمه أن يحمله على عاتقه، فخرج على تلك الصورة واستقبله خصىّ آخر، فقال له: انج بنفسك فإن شريحاً يريد أن يفرق أولاد الزنى على الخصيان"[1].

وبعض النوادر تشير لمكانة بعض النساء لدى أزواجهن، فى حين نرى نوادر أخرى تشير لعدم قيمة المرأة لدى بعض الرجال، كما تصوّر لنا هذا تلك النادرة عن جحا وزوجة له ماتت.

"ماتت امرأته فلم تظهر عليه علامات الحزن الشديد، وبعد مدةٍ مات حماره فبدت عليه علامات الأسى والحزن البالغ.

فقال له أحد أصدقائه: ما أعجبك يا جحا! ماتت امرأتك فلم أرك حزنت عليها مثل هذا الحزن.

فقال جحا: عندما توفيت امرأتى جاءنى جيرانى وقالوا: لا تحزن فإنا سنجد لك زوجة أحسن منها، وعاهدونى على ذلك، وعندما مات الحمار لم يأتنى أحد يسلينى بمثل هذه السلوى، أفلا يحق لى أن يشتد حزنى على حمارى؟"[1].

ونرى فى رواية سوء ظن معاوية بن أبى سفيان بالمرأة.

"وقال صعصعة لمعاوية: يا أمير المؤمنين، كيف ننسبك إلى العقل وقد غلب عليك نصف إنسان! يريد غلبة امرأته فاختة بنت قرظة عليه؛ فقال معاوية: إنهن يغلبن الكرام ويغلبهن اللئام!"[2].

---

(1) نثر الدر، 293/4.

(1) أخبار جحا، ص129.

(2) العقد الفريد، 115/7.

ومن الطريف أن نقرأ تلك النوادر التى تصوِّر الخلافات الزوجية بين رجل وامرأة يتصفان بالظرف، كالمضحكين والظرفاء ونسائهم، كمزبد وامرأته، وجحا وإحدى زوجاته.

وها هى ذى نادرة تعرض خلافًا حدث بين مزبد وزوجته بشكل مضحك.

"اشترى مزبد رأسين فوضعهما بين يدى امرأته. وقال: اقعدى نأكل، فأخذت رأسًا فوضعته خلفها. وقالت: هذا لأمى، فأخذ مزبد الرأس الآخر ووضعه خلفه. وقال: هذا لأبى.

قالت: فماذا نأكل؟ قال: ضعى رأس أمك وأضع رأس أبى"[1].

وكذلك هذه نادرة أخرى تصوّر خلافًا وقع بين جحا وإحدى زوجاته، وكلاهما يتصرف بشكل يثير الفكاهة.

"بعد أن ماتت زوجة جحا تزوج امرأة مات زوجها، فكانت كثيرًا ما تذكر محاسن زوجها المتوفى.

وكان هو يقابلها بالمثل فيذكر محاسن زوجته المتوفاة، ولكنه ضاق ذرعًا بذلك، وفى إحدى الليالى وهى نائمة، دفعها برجله فسقطت على الأرض، فغضبت وشكت ذلك لأبيها.

فقال له جحا: أرجو أن تنصفنى، فنحن أربعة أشخاص ننام على سرير واحد أنا والمرحومة زوجتى، وابنتك والمرحوم زوجها، والسرير لا يسع أربعة أشخاص، ولذلك تدحرجت ابنتك من فوقه، فما ذنبى أنا؟"[1].

---

(1) جمع الجواهر، ص361.

(1) أخبار جحا، ص124.

قضية تعدد الزوجات فى النادرة

ومن الأمور الطريفة التى عرضتها النادرة أثر تعدُّد الزوجات على العلاقة الزوجية، خاصة على الزوجات، بل أثرها على جوارى كل زوجة من زوجات الرجل المعدِّد، كما نرى فى هذه النادرة.

عن "يحيى بن عبد العزيز عن محمد بن الحكم عن الشافعى قال: تزوج رجل امرأة حديثة على امرأة له قديمة، فكانت جارية الحديثة تمر على باب القديمة فتقول:

وما يستوى الرجلان رجل صحيحة ورجل رمى فيها الزمانُ فَشُلَّتِ

ثم تعود فتقول:

وما يستوى الثوبان ثوب به البلى وثوب بأيدى البائعين جديد

فمرت جارية القديمة على الحديثة فأنشدت:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما القلب إلا للحبيب الأولِ

كم منزلٍ فى الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدًا لأول منزل"[1]

---

(1) العقد الفريد، 110/7، ومن الواضح أن تعدّد الزوجات لم يكن ينتج عنه مشاكل كثيرة فى العصر الأموى وما سبقه، فى حين بدأ ظهور المشاكل لتعدد الزوجات فى العصر العباسى بامتزاج العرب بغيرهم من الأمم والشعوب، وبخاصة تلك الأمم التى لا تعرف التعدد ولا تجيزه.
وها هى ذى رواية تظهر استمتاع العربى بتعدد الزوجات فى العصر الأموى، وعدم حدوث تصادم بينه وبين نسائه لجمعه بين أربع نساء فى وقت واحد.
"ذكر النساء عند الحجاج، فقال: عندى أربع نسوة: هند بنت المهلب، وهند بنت أسماء بن خارجة، وأم الجلاس بنت عبد الرحمن بن أسيد، وأمة الرحمن بنت جرير بن عبد الله البجلى. فأما ليلتى عند هند بنت المهلب فليلة فتى بين فتيان، يلعب ويلعبون؛ وأما ليلتى عند هند بنت أسماء فليلة ملك بين الملوك؛ وأما ليلتى عند أم الجلاس فليلة أعرابى مع أعراب فى حديثهم=

وفى النوادر التى تعرض قضية تعدد الزوجات، نرى المرأة – فى الغالب – رافضة هذا التعدد، وتهدّد الرجل بما يسوءه لو أنه جرأ على أن يتزوج عليها أو يتسرَّى بغيرها من الجوارى.

ومن الطريف أن نجد الرجل – فى هذه النوادر – يخضع لتهديد امرأته، ولا يجرؤ على التعدد الذى همَّ به، أو حدث به نفسه، كما نرى فى هذه النوادر.

"غاب رجل عن امرأته فبلغها أنه اشترى جارية، فاشترت غلامين، فبلغه ذلك، فجاء مبادرًا، وقال لها: ما هذا؟ فقالت: أما علمت أن الرحى إلى بغلين أحوج من البغل إلى رحيين، ولكن بع الجارية حتى نبيع الغلامين، ففعل ذلك ففعلت"[1].

* * *

"ومثل ذلك ما حكى عن الأحنف: أنه اعتم ونظر فى المرآة، فقالت له امرأته: كأنك قد هممت بخطبة امرأة، قال: قد كان ذلك، قالت: فإذا فعلت فاعلم أن المرأة إلى رجلين أحوج من الرجل إلى امرأتين، فنقض عمته وترك ما كان قد همَّ به"[1].

* * *

"قال أحمد بن هشام الكوفى: تزوجت فاطمة بنت أبى زيد الحامض. فلما اجتمعنا ليلة العرس وجلس النساء على الرسم مع العروس

=وأشعارهم. وأما ليلتى عند أمة الرحمن بنت جرير فليلة عالم بين العلماء والفقهاء". انظر: العقد الفريد، 113/7.

(1) نهاية الأرب، 22/4.

(1) المصدر السابق، 22/4.

قالت لهن: لا أعرف لقعودكن معنى، لا أنا مستوحشة فتؤنسننى. ولا محتشمة فتبسطننى. فانصرفن فى حفظ الله، فقمن، وأقبلت علىّ فقالت: احتشامك بغض. واحتشامى أبغض منه، لأنك قد جربت وقد جربت. وكما أنه يكبر عليك أن ترانى مع غيرك. كذلك يكبر علىّ أن أراك مع غيرى، فخذ فى أمرك، والزم الصحبة يلزمك العمل، وأنا أعطى الله ﷻ عهدًا يسألنى عنه، ويأخذنى به، لئن خالفتنى إلى امرأة لأخالفنك إلى ثلاثة رجال"[1].

تعرض النادرة لقضية الطلاق

وكثير من النوادر التى تعرضت للخلافات الزوجية بين الرجل والمرأة ركَّزت على النتيجة الأسوأ التى قد تحدث لهذا الخلاف، وهى الطلاق، ودائمًا نرى الطلاق – فى هذه النوادر – يتم بأسلوب ساخر.

بل إننا نرى بعض الرجال يطلقون نساءهم، لا لشىء إلا لكى يضحكوا من حولهم.

وبالطبع لا نصدق بواقعية كل هذه النوادر، ولكنها مع ذلك محتملة الحدوث قديمًا، وتدل على أن وضع المرأة – فى العصر الأموى والعباسى – كان وضعًا مهينًا – إلى حد ما – .

وها هى ذى نوادر نرى فيها أزواجًا يطلقون نساءهم فيها بلا أسباب، أو من أجل إضحاك من حولهم فحسب.

---

(1) البصائر والذخائر، 58/2.

وقالت للجماز[1] "امرأته فى يوم غائم: ما يطيب فى هذا اليوم؟ فقال: الطلاق"[2].

* * *

"ورأى أعرابى الناس بمكة وكل واحد يتصدق ويعتق ما أمكنه. فقال: يا رب، أنت تعلم أنه لا مال لى، وأشهدك أن امرأتى طالق لوجهك يا أرحم الراحمين!"[3].

* * *

وعن الأصمعى قال: "خرج قوم من قريش إلى أرضهم، وخرج معهم رجل من بنى غفار، فأصابهم ريح عاصف يئسوا معها من الحياة، ثم سلموا فأعتق كل رجل منهم مملوكًا.

فقال ذلك الأعرابى: اللهم لا مملوك لى أعتقه، ولكن امرأتى طالق لوجهك ثلاثًا"[1].

وهناك شخصيات معروفة بالفكاهة وكثرة النوادر عنها – كُمَزَبِّد – نرى لها نوادر كثيرة – نوعًا ما – تدور حول تطليقهم نساء

---

(1) الجماز هو أبو عبد الله محمد بن عمرو بن حماد بن عطاء بن ياسر، وهو شاعر مطبوع، وعُرف بظرفه وكثرة نوادره، وكان الناس فى حياته يأتنسون بحديثه وظرفه، وخاصة الخليفة المتوكل الذى قربه منه، وقد توفى الجماز سنة 250هـ. انظر عنه: معجم الأدباء، 68/1؛ 858/2، 946؛ 2105/5، 2106، 2142، وجمع الجواهر، ص115، والبخلاء للجاحظ، ص73.

(2) نثر الدر، 253/3.

(3) جمع الجواهر، ص298.

(1) أخبار الحمقى والمغفلين، ص102.

تزوجوهن، كما نرى فى هذه النوادر عن مزبد وزوجات تزوجهن وطلقهن.

"قال مزبد لامرأته: أنت غير شفيقةٍ علىّ، ولا راعية لى. فقالت: والله لأنا أرعى بك من التى كانت قبلى وأشفق. قال: أنت طالق ثلاثًا، لقد كنت آتيها بالجرادة فتطبخ لى منها أربعة ألوان وتشوى [جنبيها].

فدعْته إلى القاضى، فجعل القاضى يطلب له المخرج فقال: أصلحك الله! لا عليك إن أشكلت المسألة فهى طالق ثلاثين"[1].

* * *

خاصم مزبد مرة "امرأته، وأراد أن يطلقها، فقالت له: اذكر طول الصحبة. قال: والله ما لك عندى ذنب غيره"[2].

* * *

"وزُفَّتْ إليه امرأة قبيحة، فقيل له: بم تُصَبِّحُها؟ قال: بالطلاق"[1].

وبالطبع هذا الشخص السريع الغضب كمزبد الذى يطلق نساءه لأتفه الأسباب، أو بلا أسباب هو شخص مضحك؛ لأنه يخالف طبيعة الناس العادية، ويقوم بأفعال غريبة تثير الضحك.

---

(1) جمع الجواهر، ص207.

(2) نثر الدر، 238/3.

(1) أخبار الظراف والمتماجنين، 138، انظر أيضًا: نثر الدر، 245/3.

وإذا كنا قد رأينا فى النوادر السابقة رجالاً يطلقون نساءهم بلا أسباب أو لأسباب واهية، فها هى ذى نادرة نرى فيها امرأة تطلق زوجها بشكل مضحك.

"وشكت أعرابية زوجها فى صواحب لها فقلن لها: طلِّقيه، فقالت: اشهدن أنه طالق، فقلن لها: ثنى فقالت: اشهدن أنه طالق، فقلن لها: ثلثى، فقالت: اشهدن أنى طالق ثلاثا.

فاختصموا إلى والى الماء، فتكلمت فقال: إيهًا أفى ثلاث لا يجوز فيجازيك، الزمى الطريق المهيع، ودعى بينات الطريق[1]، وانتعلى الميت، كيف قلت؟ قالت: قلت هو طالق ثلاثًا، فتفكر الوالى ساعة، ثم قال: أراك تحلين له، ولا أراه يحل لك"[2].

ومن الطريف أيضًا أن نرى رجلاً مريضًا بالوسواس يظن أشياء لم تحدث أنها حدثت، فيظن أنه طلق امرأته وهو مع ذلك لم يطلقها فى الواقع، كما تصوِّر لنا هذا تلك النادرة.

"جاء رجل إلى أبى خازم القاضى، فقال: إن الشيطان يأتينى، فيقول: إنك قد طلقت امرأتك، فيشككنى، فقال له: أوليس قد طلقتها؟ قال: لا! قال: ألم تأتنى أمس فتطلقها عندى؟ فقال: والله ما جئتك إلا اليوم، ولا طلقتها بوجه من الوجوه.

قال: فاحلف للشيطان كما حلفت لى، وأنت فى عافية"[1].

---

(1) بينات الطريق: الطريق الواضح المستقيم.

(2) نثر الدر، ج6، قسم2، ص479.

(1) أخبار الظراف والمتماجنين، ص78.

ومن وسائل الإضحاك التى نراها فى بعض النوادر أن يقسم بعض الرجال – خاصة الظرفاء منهم – بالطلاق على أمور تافهة أو بلا قيمة، فيكون هناك مفارقة بين القسم الغليظ على أمر لا يستحق القسم على الإطلاق، كما نرى فى هذه النوادر.

"قال الواقدى: كنت مع أشعب نريد المصلى، فوجد دينارًا، فقال لى: يا ابن واقد قلت: ما تشاء؟ قال: وجدت دينارًا فما أصنع به؟

قال: قلت: عَرِّفْهُ، قال: أم العلاء إذًا طالق، قال: قلت: فما تصنع به إذًا؟ قال: أشترى به قطيفة أعرفها"[1].

* * *

"وأهدى رجل من ولد عامر بن لؤى إلى إسماعيل الأعرج فالوذجة وأشعب حاضر، فقال: كل يا أشعب، فأكل منها.

فقال له: كيف تراها؟ قال: الطلاق يلزمه إن لم تكن عملت قبل أن يوحى ربك إلى النحل، أى ليس فيها حلاوة"[2].

* * *

"كان زياد بن عبد الله الحارثى أبخل خلق الله، فأولم وليمة لطُهْرِ بعض أولاده، وكان الناس يحضرون ويقدم الطعام فلا يأكلون منه إلا تعللاً وتشعثًا[1] لعلمهم به، فقدم فيما قدم جدى مشوى فلم

(1) الأغانى، 140/19، وانظر أيضًا: أخبار الظراف والمتماجنين، ص69.

(2) جمع الجواهر، ص67، وانظر أيضًا: زهر الآداب، 162/1، والأغانى، 154/16.

(1) تشعث من الطعام: أكل منه قليلاً.

يعرض له أحد، وجعل يردده على المائدة ثلاثة أيام والناس يجتنبونه إلى أن انقضت الوليمة.

فأصغى أشعب إلى بعض من كان هناك فقال: امرأته الطلاق إن لم يكن هذا الجدى بعد أن ذبح وشوى أطول عمرًا وأمد حياة منه قبل أن يذبح، فضحك الرجل، وسمعها زيادة فتغافل"[1].

* * *

"ووقع نحويّ فى كنيف، فجاء كناس ليخرجه، فصاح به الكناس ليعلم أهو حى أم لا، فقال له النحوى: اطلب لى حبلاً دقيقًا وشدنى شدًا وثيقًا واجذبنى جذبًا رفيقًا.

فقال الكناس: [امرأتى] طالق إن أخرجتك منه، ثم تركه وانصرف"[2].

تصوير النادرة بعض الأسر الفقيرة

وتظهر لنا بعض النوادر بعض الأسر التى كانت فقيرة، أو مرت بظروف صعبة، فها هى ذى نادرة تدل على امرأة لم ترث من زوجها سوى فقره.

وقيل لمزبد: "ما ورثت أختك عن زوجها؟ فقال: أربعة أشهر وعشرًا"[1].

---

(1) الأغانى، 175/19.

(2) المستطرف، ص535.

(1) نثر الدر، 237/3.

وهذه نادرة أخرى تشير فيها امرأة عجوز إلى فقرها مستخدمة الكناية الطريفة فى ذلك.

قال الأصمعى: "جاءت عجوز إلى عبد الله بن جعفر، فقال: كيف حالك يا عجوز؟ قالت: ما فى بيتى جرذ؛ فقال: لقد أطلقت المسألة، لأملأن بيتك جرذانًا"[1].

وتلك نادرة أخرى تشير لقاضٍ وزوجته، كاد عيد الأضحى يمر عليهما، وهما فى حالة فقر، حتى إنهما لم يستطيعا شراء خروف ليضحيا به.

قال الأصمعى: "ولى رجل قضاء الأهواز، فأبطأت عليه أرزاقه وليس عنده ما يضحى به ولا ما ينفق؛ فشكا ذلك إلى امرأته، وأخبرها ما هو فيه من الضيق، وأنه لا يقدر على أضحية؛ فقالت له: لا تغتم، فإن عندى ديكًا عظيمًا قد سمنته، فإذا كان يوم الأضحى ذبحناه.

فبلغ جيرانه الخبر، فأهدوا له ثلاثين كبشًا وهو فى المصلى لا يعلم. فلما صار إلى منزله ورأى ما فيه من الأضاحى، قال لامرأته: من أين هذا؟ قالت: أهدى لنا فلان، وفلان، وفلان حتى سمت له جماعة. فقال لها: يا هذه، تحفَّظِى بديكنا هذا، فلهو أكرم على الله من [إسماعيل][1] بن إبراهيم؛ إنه فدى ذلك بكبش واحدٍ، وفدى ديكنا هذا بثلاثين كبشًا!"[2].

---

(1) أخبار الظراف والمتماجنين، ص145.

(1) فى الأصل إسحاق، والصواب إسماعيل عليهما السلام.

(2) العقد الفريد، 8/140- 141.

المهن التى قامت بها المرأة وصورتها النادرة

تعرضت النادرة لبعض المهن التى عملت بها المرأة – فى العصر العباسى على وجه الخصوص –، والمهنة الأساسية التى قامت بها معظم الجوارى هى الخدمة فى بيوت أسيادهن، كما صور ذلك بعض النوادر، كهذه النادرة.

"نزل بكوفى ضيف، فقال لجاريته: يا جارية، أصلحى لضيفنا فالوذجًا. قالت الجارية: ليس عندنا شىء. قال: ويلك! فهاتى قطيفة إبريسم[1] حتى ينام"[2].

وهناك نساء جوارٍ أرضعن بعض الأشخاص، فى صغرهم، وشاركن فى تربيتهم، ومثل هؤلاء الجوارى لهن مكانة أفضل من حال الجوارى الأخريات اللائى يخدمن فى بيوت سادتهن.

وقد تعرضت النادرة لهؤلاء الجوارى المرضعات المربيات، كما نرى فى هاتين النادرتين.

وقال المَكِّى: دخلت على العنبرىّ "يومًا، وإذا عنده جُلَّة تمر، وإذا ظِئْرُه جالسة قبالته فكلما أكل تمرة رمى بنواتها إليها، فأخذتها فمصتها ساعة ثم عزلتها. فقلت للمكى: أكان يدع على النواة من جسم التمر شيئًا؟ قال: والله لقد رأيتها لاكت نواة مرة بعد أن مصتها، فصاح بها صيحة. لو كانت قتلت قتيلاً ما كان عنده أكثر من ذلك.

---

(1) إبريسم: كلمة معربة معناها أحسن أنواع الحرير.

(2) نثر الدر، 282/3.

وما كانت إلا فى أن تبادله الأعراض وتسلم إليه الجوهر. وكانت تأخذ حلاوة النواة، وتودعها نَدْوَة الريق"[1].

* * *

"وخبرنى محمد وعلىّ ابنا يسير، أن ظئرًا لسليمان بن رِياش لسعتها عقرب فملأت الدنيا صراخًا، فقال سليمان: اطلبوا لها هذه العقرب، فإن دواءها أن تلسعها لسعة أخرى فى ذلك المكان، فقالت العجوز: قد برئت، وقد سكن وجعى، ولا حاجة بى إلى هذا العلاج. قال: فَأَتَوْهُ بعقرب لا والله إن يدرى: أهى تلك أم غيرها؟ فأمر بها فأُمْسِكتْ فقالت: أَنْشُدُكَ بالله واللبن فأبى وأرسلها عليها، فلسعتها فغشى عليها ومرضت [زمانًا] وتساقط شعر رأسها. فقيل لسليمان فى ذلك فقال: يا مجانين! لا والله إن رد علىَّ روحها إلا اللسعة الثانية. ولولا هى لقد كانت ماتت"[2].

ومن الأعمال الطريفة التى كان يقوم بها بعض النساء قديمًا وفى العصر الحديث أيضًا مهنة الخاطبة، أو كما كانت تسمى قديمًا الدلالة.

وكانت هذه الدلالة أحيانًا تغش الأزواج، كى تحتال لزواج فتيات قبيحات منهم نظير أموال تأخذها من أهل هؤلاء الفتيات.

وها هى ذى نادرة عن امرأة دلالة زوجت فتاة لرجل، ولم تعجبه حين نظر إليها ليلة زفافه منها.

---

(1) البخلاء للجاحظ، ص113.

(2) الحيوان، 5/367- 368.

"قدّم بعضهم عجوزًا دلالة إلى القاضى وقال: أصلح اللّه القاضى، زوجتى هذه امرأة فلما دخلت بها، وجدتها عرجاء.

فقالت: أصلح اللّه القاضى، زوجته امرأة يجامعها، ولم أعلم أنه يريد أن يحج عليها أو يسابق بها فى الحلبة أو يلعب عليها بالكرة والصولجان"[1].

أما جحا فقد انخدع بعروس زوجته منها إحدى الخاطبات، وحين رأى زوجته فوجىء بقبحها، فكان موقفه منها طريفًا كما تصوّر لنا هذا تلك النادرة.

"خطبت له إحدى الخاطبات امرأة قبيحة المنظر ولم يرها إلا ليلة الزفاف، وفى الصباح تقدمت إليه العروس على استحياء وقالت له: أرجو أن تخبرنى عن أقربائك الرجال، أيهم أظهر أمامه، وأيهم أختفى منه؟

فقال لها: أظهرى نفسك لكل الناس واختفى منى أنا"[2].

وفى النادرة التالية نجد امرأة كانت تقوم بعملين فى الوقت نفسه فهى دلالة وقوادة.

"كانت أم زنين دلالة بالمدينة، وكانت عندهم جارية مولّدة فارهة تصنعها، ترجو بها الرغائب، فلم تعلم إلا وقد أحبلها ابنها فشقّتْ ثوبها، ونتفت شعرها وصاحت. فقال لها زنين: ويلك! الذى حلَّ بها أعظم

---

(1) نهاية الأرب، 20/4.

(2) أخبار جحا، ص118- 119.

من الذى حل بك، لأنها كانت ترجو أن تحبل من خليفة أو ابن خليفة فحبلت من ابن أم زنين القوادة"[1].

ومن الطريف أن نجد فى بعض النوادر رجالاً مخنثين كانوا يقومون بعمل المرأة الدلالة، كما نرى فى هذه النادرة.

"وعن العتبي قال: حدثنى رجل من أهل المدينة قال: كان بالمدينة مخنث يدلُّ على النساء، يقال له أبو الحر، وكان منقطعًا إلىّ، فدلنى على غير ما امرأة أتزوجها، فلم أرض عن واحدة منهن، فاستقصرته يومًا، فقال: والله يا مولاى لأدلنك على امرأة لم تر مثلها قط، فإن لم ترها كما وصفت فاحلق لحيتى! فدلنى على امرأة، فتزوجتها، فلما زُفت إلىّ وجدتها أكثر مما وصف، فلما كان فى السحر إذا إنسان يدق الباب، فقلت: من هذا قال: أبو الحر، وهذا الحجام معه فقلت: قد وفر الله لحيتك أبا الحر، الأمر كما قلت!"[2].

وهذه نادرة تشير إلى امرأة كانت تعمل قوَّادة.

"وكان أبو العاج واليًا بواسط، فأتاه صاحب شرطته بقوادة، فقال: ما هذه؟ قال: قوادة؛ قال: وما تصنع؟ قال: تجمع بين الرجال والنساء! قال: وإنما جئتنى بها لتعرفها بدارى؟ خل عنها لعنك الله ولعنها"[1].

وأيضًا من المهن التى عملت بها المرأة قديمًا – وفى العصر الحديث أيضًا – مهنة القابلة، كما نرى فى هذه النادرة.

---

(1) البصائر والذخائر، 133/2.

(2) العقد الفريد، 113/7.

(1) المصدر السابق، 175/7.

"وأخذ الطلق امرأة ابن خلف الهمذانى، فدخل ابن خلف فقال للقابلة: أخرجيه ذكرًا ولك دينار ولك ما شئت، باللّه لا أحتاج أن أوصيك"[1].

وفى الأوساط الفقيرة كان بعض النساء يساعدن أزواجهن فى أعمالهم كالعمل فى زراعة الأرض، وبعض المهن الأخرى، بل إن بعض هؤلاء النساء فى تلك الأسر الفقيرة كن يعملن فى بعض الأعمال كالبيع والشراء، وصناعة بعض الأشياء كالأطباق والأوانى وغير ذلك، كما نرى فى هذه النادرة.

"وقف أشعب على امرأة تعمل طبق خوصٍ فقال: لتكبريه، فقالت: لم؟ أتريد أن تشتريه؟ قل: لا، ولكن عسى أن يشتريه إنسان فيهدى إلىّ فيه، فيكون كبيرًا خيرٌ من أن يكون صغيرًا"[2].

ومن المهن التى عملت بها المرأة – الجارية بالطبع – قديمًا وأبرزتها النادرة العزف على الآلات الموسيقية والغناء والرقص، وبخاصة فى الدور التى يجتمع فيها الرجال للهو والعبث ولمصاحبة النساء، ومثل هؤلاء النساء اللائى يمارسن هذا العمل كان يطلق عليهن القيان، وقد وضح لنا الجاحظ – فى كتاب القيان – طبيعة عمل القينة والصفات التى يتصف بها معظم القيان، والوسائل والحيل التى تحتال بها لصيد

(1) البصائر والذخائر، 104/4- 105.

(2) الأغانى، 150/19، وانظر أيضًا: جمع الجواهر، ص67، والعقد الفريد، 136/8، ونثر الدر، 316/5.

الرجال حتى يقعوا فى مصائدها لتستنزف أموالهم دون أن ينالوا منها شيئًا – فى الغالب – [1].

وهذه نوادر تتعرض لنساء عملن بالغناء.

"قال الجمَّاز: حضرت مجلسًا فيه مغنية، وفيه رجل بغير جُبَّة. والدنيا باردة. فقال وهو يرعد للمغنية: أشتهى أن أعانقك، فقالت له: أنت إلى أن تعانق جبة أحوج منك إلى عناقى" [2].

* * *

"قال القاسم بن الحسين: كان لبعض الظرفاء جاريتان مغنيتان إحداهما حاذقة والأخرى متخلفة. وكان إذا قعد معهما وغنته الحاذقة خرق قميصه، وإذا غنت الأخرى قعد يخيطه" [3].

* * *

"وقال بعض السلف لرجل: كيف أقبل شهادتك وقد سمعتك تقول لمغنية: أحسنت؟ قال: أليس لم أقل ذلك إلا بعد سكوتها؟ فأجاز شهادته" [4].

وها هما نادرتان عن قينتين مع أبى العيناء ذلك الأديب الظريف الذى عاش فى القرن الثالث الهجرى.

---

(1) انظر: رسائل الجاحظ، 2/139- 182.

(2) البصائر والذخائر، 1/230.

(3) المصدر السابق، 1/61.

(4) المصدر السابق، 5/192.

"وقالت قينة[1] لأبى العيناء: هب لى خاتمك أذكرك به، فقال لها: اذكرى أنك طلبته منى ومنعتك"[2].

* * *

"قالت له قينة أخرى: أنت أيضًا يا أعمى! فقال لها: ما أستعين على وجهك بشىءٍ أصلح من العمى"[3].

وهذه نادرة نرى فيها جارية تشير لعملها بالرقص من خلال تعريضها لذلك بالكناية الطريفة.

"اعترض رجل جاريةً، ليشتريها، فقال لها: بيدك صنعة؟ فقالت: لا! ولكن برجلى؛ تعنى: أنها رقاصةٌ"[4].

تعرُّض النادرة للنساء العاهرات

وقد تعرَّضت النادرة للمرأة العاهرة، التى تأتى الرذيلة ولا يأخذها رادع عن فعلها، بل إنها أحيانًا تجاهر بها كأنها لا ترى فى فعلها ما يخالف الشرع والأخلاق الحميدة.

وهذه النوادر التى تتعرض للمرأة العاهرة "البغىّ" يكثر فيها ذكر الألفاظ الجارحة للحياء، مما لا يمكننا معه ذكرها هنا، ونكتفى بذكر هاتين النادرتين اللتين تخلوان من هذه الألفاظ.

"قال جحظة: سأل رجل رجلاً عن جارة له أراد أن يتزوجها. فقال: إن كنت تريدها خالصة لك من دون المسلمين فلا تطمع"[1].

* * *

---

(1) القينة: الجارية المغنية.

(2) معجم الأدبا، 2606/6.

(3) نثر الدر، 202/3.

(4) أخبار الظراف والمتماجنين، ص148.

(1) البصائر والذخائر، 46/2.

قال الجاحظ: "وتبع داود بن المعتمر امرأة، فلم يزل يطريها حتى أجابت، ودلها على المنزل الذى يمكنها فيه مايريد، فتقدمت الفاجرة وعرض له رجل فشغله، وجاء إلى المنزل وقد قضى القوم حوائجهم وأخذت حاجتها، فلم تنتظره. فلما أتاهم ولم يرها قال: أين هى؟ قالوا: والله قد فرغنا وذهبت! قال: فأى طريقٍ أخذت؟ قالوا: [لا] والله ما ندرى؟ قال: فإن عدوت فى إثرها حتى أقوم على مجامع الطرق أترونى ألحقها؟ قالوا: [لا] والله ما تلحقها! قال: فقد فاتت الآن؟ قالوا: نعم. قال: فعسى أن يكون خيرًا! فلم أسمع قط بإنسانٍ يشك أن السلامة من الذنوب خير [غيره]"[1].

تعرُّض النادرة للعلاقة الجنسية

تعرَّضت النادرة بمنتهى الجرأة والوضوح للعلاقات الجنسية بين الرجال والنساء، وما يحدث قبلها وخلالها وبعدها.

وغالبًا ما تذكر ألفاظ المناكح صراحة فى هذه النوادر، ونرى فى هذه النوادر مكايدات طريفة بين الرجال والنساء.

ولا يستغرب أن نجد النادرة كاشفة عن العلاقة الجنسية بكل ما يحدث فيها بين الرجال والنساء، فهى تحكى وتؤلف وتروى عن طريق الرجال، ويعبرون عن نظرتهم للمجتمع الذى عاشوا فيه خلالها، وهو مجتمع رجولى لم تكن المرأة تخرج فيه للحياة – إلا قليلاً – فلم يكن هناك موضع للحياء حينئذ فى التعرض صراحة لكل أبعاد العلاقة الجنسية؛ بخلاف عصرنا الذى تشارك فيه المرأة الرجل كل مسئوليات

(1) الحيوان، 3/36- 37.

الحياة التى يحيانها، فليس مقبولاً التعرض لهذه الأمور فى وسائل الإعلام العامة بمثل هذه الصراحة والجرأة.

ولا نستطيع فى هذا المقام أن نذكر هذه النوادر التى تذكر فيها ألفاظ المناكح صراحة، ولكننا نشير إلى بعضها[1]، ونذكر بعض النوادر التى لم تتعرض لألفاظ المناكح بشكل صريح.

"وأقبل رجل إلى على بن أبى طالب ﷺ، فقال: إن لى امرأة كلما غشيتها تقول: قتلتنى قتلتنى، قال: اقتلها وعلىّ إثمها"[2].

* * *

"واستعرض رجل جارية فاستقبح قدميها فقالت: لا تبال، فإنى أجعلهما وراء ظهرك"[3].

* * *

"وقع بين رجل وامرأته شرٌّ، فجعل يحيل عليها بالجماع، فقالت: فعل الله بك! كلما وقع بيننا شىء جئتنى بشفيع لا أقدر على رده"[1].

* * *

"أُخِذَ رجل مع زنجية قد أعطاها نصف درهم. فلما أُتِىَ به إلى الوالى أمر بتجريده وجعل يضربه ويقول: يا عدو الله، أتزنى بزنجيةٍ؟

---

(1) انظر: الحيوان، 260/6، 261، 262، والبصائر والذخائر، 230/1؛ 35/2؛ 76/3، والعقد الفريد، 155/7.

(2) العقد الفريد، 155/7.

(3) نهاية الأرب، 18/4.

(1) العقد الفريد، 155/7، وانظر أيضًا: البصائر والذخائر، 134/2.

فلما أكثر قال: أصلحك الله فبنصف درهم أيش كنت أجد؟ فضحك وخلاه"[1].

* * *

"وجد قوم زنجية مع شيخ فى مسجدٍ ليلة الجمعة، وقد نومها على جنازةٍ، فقيل له: قبحك الله من شيخ، فقال: إذا كنت أشتهى وأنا شيخ لا ينفعنى شبابكم، قالوا: فزنجية؟ قال: من منكم يزوجنى بعربية؟ قالوا: ففى المسجد؟ قال: من منكم يفرغ لى بيته ساعة؟ قالوا: فعلى جنازة؟ قال: من يعطينى سريره؟ قالوا: فليلة جمعة؟ قال: إن شئتم فعلت ليلة السبت. فضحكوا منه وخَلَّوْه"[2].

* * *

"وقال أبو عمرو المدينى: لو كانت البلايا بالحصص، ما نالنى كما نالنى: اختلفت الجارية بالشاة إلى التيَّاس اختلافًا كثيرًا، فرجعت الجارية حاملاً والشاة حائلاً"[3].

تعرض المرأة فى النادرة للتجريح خلال كياد بعض الرجال ومزاحهم

وخلال كياد بعض الرجال ومزاحهم كانوا ينالون من زوجات من يكايدونهم أو يمزحون معهم، وغالبًا ما يرد عليهم هؤلاء الرجال بتجريح نسائهم هم كذلك والنيل منهن، كما نرى فى هذه النادرة.

---

(1) البصائر والذخائر، 172/6.

(2) المصدر السابق، 173/6.

(3) الحيوان، 469/3.

"قال ماجن لآخر: كم صمت من هذا الشهر؟ قال: وتدعنى امرأتك أصوم منه شيئًا؟!"[1].

تعرُّض بعض النساء للمعاكسات خلال خروجهن للشوارع وتجولهن فى الأسواق

كذلك تعرضت النادرة لما كان يحدث لبعض النساء – خلال خروجهن من بيوتهن سيرًا فى الشوارع أو عند تجولهن فى بعض الأسواق – من معاكسات من بعض الرجال.

ولعل راوى النادرة كان يهدف من وراء مثل هذه النوادر إلى تحذير النساء – خاصة الحرائر – من الخروج من بيوتهن إلا لضرورة قصوى.

وها هى ذى نادرة نرى فيها امرأة ظريفة جريئة تتعرض لمعاكسة أحد الرجال الفاسدين فى سلوكهم.

يقول الجاحظ: "وبينا داود بن المعتمر الصُّبَيْرِىّ جالس معى، إذ مرت به امرأة جميلة لها قوام وحسن، وعينان عجيبتان، وعليها ثياب بيض، فنهض داود فلم أشك أنه قام ليتبعها، فبعثت غلامى ليعرف ذلك، فلما رجع قلت له: قد علمت [أنك] إنما قمت لتكلمها، فليس ينفعك إلا الصدق،ولا ينجيك منى الجحود، وإنما غايتى أن أعرف كيف ابتدأت القول، وأى شىءٍ قلت لها – وعلمت أنه سيأتى بآبدة. وكان مليًّا بالأوابد – قال: ابتدأت القول بأن قلت لها: لولا ما رأيت عليك من سيماء الخير لم أتبعك. قال: فضحكت حتى استندت إلى الحائط، ثم قالت: إنما يمنع مثلك من اتباع مثلى والطمع فيها، ما يرى من سيماء الخير فأما

(1) البصائر والذخائر، 106/9.

إذ قد صار سيماء الخير هو الذى يطمع فى النساء فإنا لله وإنا إليه راجعون!"[1].

تعرُّض النادرة للرجال الذين فضلوا الغلمان على النساء

فشى فى العصر العباسى الأول اللواط بالغلمان بين بعض الناس. وقد علل لنا الجاحظ فى أحد كتبه المفقودة أسباب انتشار اللواط بين الفرس منذ القدم[2]، ولاختلاط الفرس بالعرب فى العصر العباسى الأول، انتشرت هذه الظاهرة المحرمة بين بعض الناس – وبخاصة من منهم من ذوى الأصول الفارسية – ومنهم من كان يجاهر بها فى شعره مثل أبى نواس[3].

وقد ذكر الجاحظ أن العرب فى جاهليتهم لم يعرفوا الغزل بالغلمان، وأنه وافد عليهم بامتزاجهم بالأمم الأخرى التى عرفت هذا النوع من الغزل وبخاصة الفرس[4].

وقد ورد فى بعض النوادر التعرض لمسألة عشق الغلمان، كما نرى فى هذه النادرة.

"قيل لرجل: لِمَ فضلت الغلام على الجارية؟ فقال: لأنه فى الطريق

---

(1) الحيوان، 3/35- 36.

(2) الثعالبى: ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة، دار المعارف، 1985م، ص553- 554.

(3) أبو نواس: ديوان أبى نواس. بيروت، دار صادر، ط2، 1429هـ/ 2009م، وعلى سبيل المثال انظر: القصائد والمقطوعات فى الصفحات التالية، ص12- 13، 25- 26، 46- 47، 49.

(4) الجاحظ. رسائل الجاحظ "مفاخرة الجوارى والغلمان"، 2/113 – 115.

صاحب، ومع الإخوان نديم، وفى الخلوة أهل"[1].

وضع المرأة فى العصرين الأموى والعباسى

وبالنظر فى النوادر التى وصلتنا – وفيها ذكر المرأة – نرى أن المرأة فى العصرين الأموى والعباسى كان ينظر إليها على أنها من العورات، ولا يجب أن تظهر إلا أمام زوجها أو أبيها أو المحارم من أهلها، ولا يجب أن تخرج من بيتها إلا لضرورة.

بالطبع هذا عن المرأة الحرة، ونستثنى من هذا نساء بعض الخلفاء الأشراف، وكذلك نستثنى نساء بعض الأسر الفقيرة التى كانت المرأة فيها تشارك الرجل فى عمله، أو تعمل هى عملاً آخر إلى جانبه لتوفر حاجة أسرتها من الطعام والكساء ونحو ذلك.

ومن الملاحظات الهامة أن المرأة – غالبًا – كانت تذكر فى النادرة بضمير الغائب، بحيث لا تتواجد بجسدها فى النادرة، بل يتم الحديث عنها فى غيابها عن المنظر – أو المناظر – الذى تعرضه النادرة.

وكذلك كان ظهور المرأة فى النادرة – غالبًا – ما يتم داخل بيتها، فالمكان المغلق، وهو البيت هو أكثر الأماكن التى كانت تظهر فيها المرأة بالنوادر، مما يدل على قلة خروجها للحياة العامة آنذاك، وضآلة مشاركتها فيها.

كما نرى فى هاتين النادرتين.

"وقف سائل على باب دارٍ، فقال: تصدقوا علىّ. فقالت جارية من الدار: ما عندنا شىء نعطيك، وستى فى المأتم.

---

(1) البصائر والذخائر، 79/9.

فقال السائل: أى مأتم أعظم من مأتمكم إذا لم يكن عندكم شىء؟؟"[1].

* * *

"نزل بعض أهل البصرة على مدنى: وكان صديقًا له، فألح على المدنى بطول المقام، فقال المدنى لامرأته: إذا كان غدًا، فإنى أقول لضيفنا: كم ذراعًا تقفز؟! فأقفز أنا من العتبة إلى باب الدار، فإذا قفز الضيف أغلقى خلفه الباب! فلما كان من الغد، قال له المدنى: كيف قفزك يا أبا فلان؟! قال: جيد.

قال: فوثب المدنى من داخل منزله إلى خارج أذرعًا، وقال للضيف: ثب[2] أنت. فوثب إلى داخل الدار ذراعين. فقال له: أنا وثبت إلى خارج الدار أذرعًا، وأنت وثبت ذراعين إلى داخل الدار. قال: ذراعان إلى داخلٍ خير من أربعة إلى خارج!!"[3].

كذلك مما يدل على أن وضع معظم النساء فى العصرين الأموى والعباسى كان متدنيًّا أن نرى الإشارة لضعف عقولهن، وسوء تصرفهن، كما تشير لهذا بعض الأمثال والأقوال[1].

---

(1) نثر الدر، 322/5.

(2) ثب: أى اقفز.

(3) القول النبيل بذكر التطفيل، ص71.

(1) من ذلك ما جاء فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ: "وفى قول بعض الحكماء: "لا تستشيروا معلمًا ولا راعى غنم ولا كثير القعود مع النساء". وقالوا: لا تدع أم صبيك تضربه؛ فإنه أعقل منها وإن كانت أسن منه". البيان والتبيين، 248/1".

ويقول الخليفة المنصور لابنه المهدى ضمن وصيته له: "وإياك أن تدخل النساء فى مشورتك فى أمرك، وأظنك ستفعل". انظر: الطبرى: تاريخ الطبرى (تاريخ الأمم والملوك). تحقيق: =

=محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة، دار المعارف، ط4، 1979م، 104/8، وابن الساعى: تاريخ الخلفاء العباسيين. تحقيق: د. عبد الرحيم يوسف الجمل. القاهرة، مكتبة الآداب، 1413هـ/ 1993م، ص25.

والمأمون يقول: "النساء شر كُلُّهنّ وشر ما فيهن قلة الاستغناء عنهن". انظر: الثعالبى: التمثيل والمحاضرة. تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو. الدار العربية للكتاب، 1983م، ص217.

أما عن موقف الجاحظ – وهو خير من صور لنا عصره بكل ما فيه – من عقل المرأة ودورها فى الحياة الخاصة – فى بيت أبيها وزوجها – والحياة العامة – سياسيًّا واجتماعيًّا – فهو لا يعطى رأيه فى هذه الأمور صراحة إلا فى أحوال قليلة، لعله يخشى أن تكون آراؤه صادمة لرجال عصره فيساء الظن به.

فهو يرى أن عقول النساء فى عصره – خاصة – لا يعتمد عليها، وكثيرًا ما يذكر الغرائب والخرافات، ويعلق عليها بأنها مما يتناوله النساء فى مجالسهن (انظر: الحيوان، 302/5-303).

والجاحظ فى هذا يساير المفهوم الشائع عن المرأة فى عصره، ومما يذكره فى كتاب البيان والتبيين مؤيدًا هذا الموقف من المرأة: "وكانوا يعيبون النوك والعىّ والحمق وأخلاق النساء وأخلاق الصبيان". انظر: البيان والتبيين، 244/1.

ونرى للجاحظ أحيانًا أقوالاً توافق النظرة العامة للمرأة فى عصره مثل قوله:

"فأما الأبكار الغريرات فهن إلى أن يؤخذن بالقراءة فى المصحف ويحتال لهن حتى يصرن إلى حال التشييخ والجبن والكزازة، وحتى لا يسمعن من أحاديث الباه والغزل قليلاً ولا كثيرًا - أحوج". انظر: الحيوان، 291/3.

ومع ذلك فللجاحظ آراء مختلفة عن المرأة فى كتاب القيان، تدل على أنه كان يستهجن موقف رجال عصره من المرأة فى التضييق عليها، وحجابها عن المجتمع، ويرى أن العصر= =الجاهلى وعصر صدر الإسلام كانت المرأة فيهما تخرج للحياة وتشارك فيهما بدور كبير، خلاف ما هو حاصل فى عصره. انظر: رسائل الجاحظ. "كتاب القيان"، 148/2- 149.

وفى بعض مواضع من كتب الجاحظ يشيد بنساء العرب لاسيما فى العصرين الجاهلى وصدر الإسلام مما يعنى عدم رضائه عن حال المرأة فى عصره، وعدم رضائه عن نظرة الاستهجان التى ينظر إليها بها رجال عصره. انظر: (الحيوان، 286/1، والبيان والتبيين، 38/3).

وفى كتاب السناء أنصف الجاحظ المرأة، وحاول أن يرد لها كرامتها وإنسانيتها التى أهدرها بعض الرجال فى عصره. ومع ذلك فقد كان كلامه فيه نوع من الحرص بحيث لا يصدم كثيرًا بعض الرجال الذين يحتقرون المرأة ويصغرون أمرها فى عصره.

يقول الجاحظ:=

وقد مرت بنا نوادر فيها استهجان بعض الرجال – فى العصرين الأموى والعباسى – لعقول النساء، وفيها حث على عدم طاعتهن والعمل بآرائهن، وهذه نادرة أخرى فيها هذا التصور من قبل كثير من الرجال فى العصرين الأموى والعباسى نحو المرأة.

"حدثنى تمام بن أبى نعيم، قال: كان لنا جار، وكان له عُرْس، فجعل طعامه كله فالوذق، فقيل له: إن المؤونة تعظم. قال: "أحتمل ثقل الغُرْم بتعجيل الراحة – لعن الله النساء، وما أشك أن من أطاعهن شر منهن"(1).

وأيضًا نرى بعض النوادر تشير للمرأة بالاستهجان فى حالة التشبيه بها للذم، كما نرى فى هذه النادرة عن أشعب.

="ونحن وإن رأينا أن فضل الرجل على المرأة. فى جملة القول فى الرجال والنساء، أكثر وأظهر، فليس ينبغى لنا أن نقصر فى حقوق المرأة. وليس ينبغى لمن عظم حقوق الآباء أن يصغر حقوق الأمهات. وكذلك الإخوة والأخوات، والبنون والبنات. وأنا وإن كنت أرى أن حق هذا أعظم فإن هذه أرحم". انظر: رسائل الجاحظ. "من كتابه فى النساء"، 157/3.

ويقول أيضًا:

"ولسنا نقول ولا يقول أحد ممن يعقل: إن النساء فوق الرجال، أو دونهم بطبقةٍ أو طبقتين، أو بأكثر، ولكنا رأينا ناسًا يزرون عليهن أشد الزراية، ويحتقرونهن أشد الاحتقار، ويبخسونهن أكثر حقوقهن.

وإن من العجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفير حقوق الآباء والأعمام إلا بأن ينكر حقوق الأمهات والأخوال، فلذلك ذكرنا جملة ما للنساء من المحاسن.

ولولا أن ناسًا يفخرون بالجلد وقوة المنَّة، وانصراف النفس عن حب النساء، حتى جعلوا شدة حب الرجل لأمته، وزوجته وولده، دليلاً على الضعف، وبابًا من الخور، لما تكلفنا كثيرًا مما شرطناه فى هذا الكتاب". انظر: رسائل الجاحظ. "من كتابه فى النساء"، 151- 152.

(1) البخلاء للجاحظ، ص131.

"قال رجل لأشعب – وكان صديق أبيه –: يا بنىّ. كان أبوك عظيم اللحية، فمن أشبهت أنت؟ قال: أشبهت أمى"[1].

وتنسب النادرة السابقة لمزبد ذلك المضحك المشهور الذى عاش فى العصر العباسى الأول.

"ولقى مزبد رجلاً كان صديقًا لأبيه. فقال: يا بنىّ، كان أبوك عظيم اللحية، فما بالك أجرودىّ؟ فقال مزبد: أنا خرجت لأمى"[2].

التعصب القبلى وتعصب الأعراب ضد الأعاجم

ومن الظواهر الاجتماعية التى تبرزها بعض النوادر المذكور فيها المرأة وجود التعصب القبلى، خاصة لدى القبائل التى تعيش فى البادية كما نرى فى هذه النادرة.

"وروى أن رجلاً من بنى تميم كان يدعو لأبيه ويدع أمه، فقيل له فى ذلك، فقال: إنها كلبية"[3].

وهذه نادرة تصوِّر تعصب الأعراب ضد الأعاجم كلهم، بحيث لا يرتضون زواج نسائهم من رجال الأعاجم فى الدنيا وفى الآخرة.

"سُمِعَ أعرابى يقول: أترى هذه الأعاجم تنكح نساءنا فى الجنة؟ فقال له آخر: ذلك بأعمالهم الصالحة. فقال: توطأ إذًا رقابنا والله قبل ذلك"[1].

---

(1) نثر الدر، 319/5، وانظر أيضًا: نهاية الأرب، 301/4.

(2) جمع الجواهر، ص307.

(3) البيان والتبيين، 282/3.

(1) نثر الدر، ج6، قسم2، ص490.

المصادر والمراجع

أولاً: المصـادر

- **الأبشيهى**

المستطرف فى كل فن مستظرف. شرحه ووضع هوامشه: د. مفيد محمد قميحة. بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1413هـ/ 1993م.

- **الآبى**

نثر الدر. تحقيق: مجموعة من المحققين. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- **الأصفهانى**

الأغانى. حقق الجزء التاسع عشر: عبد الكريم إبراهيم العزباوى. إشراف: محمد أبو الفضل إبراهيم. الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993م.

- **الثعالبى**
  - التمثيل والمحاضرة. تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو. الدار العربية للكتاب، 1983م.
  - ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة، دار المعارف، 1985م.
- **الجاحظ**
  - البخلاء. تحقيق: د. طه الحاجرى. القاهرة، دار المعارف، ط7، 1990م.

- البرصان والعرجان والعميان والحولان. تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون. بيروت، دار الجيل، ط1، 1410هـ/ 1990م.
- البيان والتبيين. تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجى بالقاهرة، مطبعة المدنى، ط7، 1418هـ/ 1998م.
- الحيوان. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر، ط2، 1382هـ/ 1965م.
- رسائل الجاحظ. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجى بالقاهرة، د.ت.
- القول فى البغال. حقق الكتاب وعلَّق عليه ووضع الفهارس: شارل بلاَّ. بيروت، دار الجيل، ط1، 1416هـ/ 1995م.

- **ابن الجوزى**

- أخبار الحمقى والمغفلين. تحقيق: د.أحمد أحمد شتيوى. القاهرة، دار الغد الجديد، ط1، 1427هـ/ 2006م.
- أخبار الظراف والمتماجنين. بعناية: بسَّام عبد الوهاب الجابى. بيروت، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1418هـ/ 1997م.
- الأذكياء. بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت.

- **الحصرى القيروانى**

- جمع الجواهر فى الملح والنوادر. تحقيق: على محمد البجاوى. بيروت، دار الجيل، ط2، 1407هـ/ 1987م.

- زهـر الآداب وثمـر الألبـاب. تحقيـق: علـى محمـد البجـاوى. القـاهرة، دار إحيـاء الكتـب العربيـة، عيسـى البـابى الحلبـى وشركاه، د.ت.

- **أبو حيان التوحيدى**

البصائر والذخائر. تحقيق: د. وداد القاضى. بيروت، دار صادر، ط1، 1408هـ/ 1988م.

- **الخطيب البغدادى**

- البخلاء. حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم. مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير، 1990م.
- التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم. القاهرة، مكتبة القدس، ط2، 1983م.

- **ابن خلكان**

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. حققه: د. إحسان عباس. بيروت، دار صادر.

- **الذهبى**

سير أعلام النبلاء. أشرف على تحقيق الكتاب وخرج أحاديثه: شعيب الأرنؤوط. بيروت، مؤسسة الرسالة، ط2، 1402هـ/ 1982م.

- **الزمخشرى**

ربيع الأبرار ونصوص الأخبار. تحقيق: عبد الأمير مهنا. بيروت، منشورات مؤسسة الأعلمى للمطبوعات، ط1، 1412هـ/ 1992م.

- **ابن الساعى**

تاريخ الخلفاء العباسيين. تحقيق: د. عبد الرحيم يوسف الجمل. القاهرة، مكتبة الآداب، 1413هـ/ 1992م.

- **شهاب الدين أحمد بن العماد الشافعى**

القول النبيل بذكر التطفيل. دراسة وتحقيق: مصطفى عاشور. الرياض، مكتبة الساعى، 1989م.

- **الصفدى**

الوافى بالوفيات. تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركى مصطفى. بيروت، ج29.

- **الطبرى**

تاريخ الطبرى (تاريخ الأمم والملوك) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة، دار المعارف، ط4، 1979م.

- **ابن عبد ربه**

العقد الفريد. تحقيق: د. مفيد محمد قميحة ود. عبد المجيد الترحينى. بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1404هـ/ 1983م.

- **عبد الستار أحمد فراج**

أخبار جحا. مكتبة مصر. دار مصر للطباعة، ط3.

- **ابن العماد الحنبلى**

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب. بيروت، دار المسيرة، ط2، 1399هـ/ 1979م.

- **ابن قتيبة**

- عيون الأخبار. شرحه وضبطه وعلَّق عليه وقدَّم له ورتب فهارسه: د. يوسف على طويل. بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت.
- المعارف. حققه وقدم له: د. ثروت عكاشة. القاهرة،دار المعارف، ط4.

- **الماوردى**

أدب الدنيا والدين. حققه وعلق عليه: مصطفى السقا. القاهرة، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده، ط3، 1375هـ/ 1955م.

- **المبرد**

الكامل. عارضه بأصوله وعلق عليه: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الفكر العربى، د.ت.

- **أبو نواس**

ديوان أبى نواس. بيروت، دا صادر، ط2، 1429هـ/ 2009م.

- **النويرى**

نهاية الأرب فى فنون الأدب.مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، 1343هـ/ 1925م.

- **ياقوت الحموى**

معجم الأدباء "إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب". تحقيق: د. إحسان عباس. بيروت، دار الغرب الإسلامى، ط1، 1993م.

ثانيًا: المراجع العربية

- **أحمد محمد الحوفى (دكتور)**

الفكاهة فى الأدب أصولها وأنواعها. نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، يناير 2001م.

- **شوقى ضيف (دكتور)**

الفكاهة فى مصر. القاهرة، دار المعارف، ط3.

- **على الحديدى (دكتور)**

الأدب وبناء الإنسان فى أدب الأطفال. القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية. د.ت.

- **على الراعى (دكتور)**

مسرح الشعب "الكوميديا المرتجلة – فنون الكوميديا – مسرح الدم والدموع". القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2006م.

- **على محمد السيد خليفة (دكتور)**
  - بنية السرد فى النادرة نوادر الأعراب فى كتاب عيون الأخبار نموذجًا. الإسكندرية. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط1، 2010م.
  - دراسات فى فنون النثر العربى للقديم. الإسكندرية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط1، 2013م.

- **محمد حسن عبد الله (دكتور)**

قصص الأطفال أصولها الفنية .. روادها. القاهرة، العربى للنشر والتوزيع.

- **محمد عماد الدين إسماعيل (دكتور)**

الأطفال مرآة المجتمع "النمو النفسى الاجتماعى للطفل فى سنواته التكوينية". الكويت، سلسلة عالم المعرفة، جمادى الآخرة، 1406هـ/ 1986م.

- **هادى نعمان الهيتى (دكتور)**

ثقافة الأطفال. الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد 113، رجب 1408هـ/ 1988م.

ثالثًا: المراجع المترجمة

- **ألارديس نيكول**

علم المسرحية. ترجمة: درينى خشبة. القاهرة، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز، د.ت.

- **د. ر. بلا شير**

تاريخ الأدب العربى. ترجمة: د. إبراهيم الكيلانى. بيروت، دار الفكر المعاصر. دمشق، دار الفكر، 1419هـ/ 1998م.

- **ل. ج. بوتس**

الملهاة فى المسرحية والقصة. ترجمة: إدوارد حليم. مراجعة: درينى خشبة. الدار المصرية للتأليف والترجمة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر.

رابعًا: الموسوعات

- **خير الدين الزركلى**

الأعلام. قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. بيروت، دار العلم للملايين، ط15، آيار، مايو 2002م.

أولاً: فى مجال الدراسات الأدبية

(1) الفكاهة فى مقامات بديع الزمان الهمذانى دراسة تحليلية. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(2) بنية السرد فى النادرة نوادر الأعراب فى كتاب عيون الأخبار نموذجًا. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(3) تيار الشعوبية فى أدب الجاحظ. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(4) الجاحظ والدولة العباسية. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(5) دراسات فى فنون النثر العربى القديم. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(6) فن المناظرة دراسة فى تطور فن المناظرة حتى نهاية العصر العباسى الأول. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(7) دراسات فى اللغة العربية (تم تأليفه بالاشتراك مع آخرين). دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(8) مسرح الطفل البناء والرؤية. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(9) الأدب فى العصر الجاهلى. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(10)النص الأدبى. مغامرة القراءة ومتعة الاستكشاف. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(11)صورة الطفل فى النادرة. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(12)صورة المرأة فى النادرة. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(13)صورة الحيوان فى النادرة. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(14)شخصية المضحك عند العرب حتى نهاية حكم المتوكل "دراسة فنية". دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

ثانيًا: فى مجال الإبداع للأطفال

(1) مغامرات الحمار الكسلان – المحتال مسرحيتان للأطفال. الهيئة العامة لقصور الثقافة. إقليم القناة وسيناء. فرع ثقافة شمال سيناء.

(2) غابة الأجداد ومسرحيتان كوميديتان أخريان للأطفال. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(3) حُلم سندريلا ومسرحيات كوميدية أخرى للأطفال. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(4) قصص جحا المضحكة. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(5) أجمل حكايات الحيوانات. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(6) مغامرات الثعلب مكور (قصص مضحكة للأطفال). دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(7) القاضى الصغير وأوبريتات أخرى للأطفال. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(8) أصدقاء الفراشات وأوبريتات أخرى للأطفال. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(9) الفأر المخترع وأوبريتات أخرى كوميدية للأطفال. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(10)جحا والمجنون ومسرحيات أخرى كوميدية قصيرة عن جحا للأطفال. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

ثالثًا: دواوين شعر

(1)ديوان الناس كم فيهم عجب "قصائد فكاهية". دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

للتواصل مع المؤلف: dr.alikhalifa1967@yahoo.com

المحتويات

الفهـــرس

المقدمة 7

الفصل الأول: مراحل عمر المرأة فى النادرة 11

الفصل الثانى: دور المرأة فى النادرة 35

الفصل الثالث: نماذج المرأة فى النادرة 43

الفصل الرابع: دلالات النوادر المذكور فيها المرأة 85

المصادر والمراجع 147